جثمان تحت الركام

رواية

اسم الكتاب: جثمان تحت الركام
اسم المؤلف: د. محمد على خضر
التصنيف: رواية
الحجم:14 - 20
عدد الصفحات: 106
سنة الإصدار: 2025
رقم الإيداع: 13199 / 2025
الترقيم الدولي: 8 – 189 – 971 – 977 - 978
تدقيق لغوي: رانيا خليل
تصميم غلاف: سارة أحمد
تنسيق وإخراج: فريق ديوان العرب

الناشر
ديوان العرب للنشر والتوزيع

إميلات الدار
dewanalarabegypt@gmail.com
dewanelarab1978@gmail.com

جثمان تحت الركام

رواية

د. محمد على خضر

ديوان العرب
للنشر والتوزيع

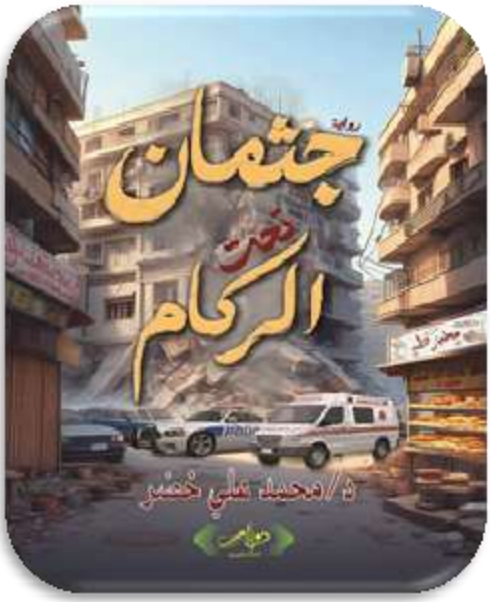

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف،
ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي،
أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه،
أو تحويله رقميا وإتاحته عبر شبكة الإنترنت،
إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.

إهداء

إلى كل من تورطوا في المأساة والأحلام المرعبة بسبب فضائلهم وليس بسبب عيوبهم

أهدي هذه الرواية

د/محمد على خضر

****

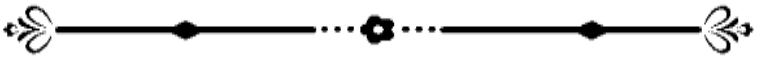

شخصيات الرواية

الحاج طه	الأب
علاء	الابن الأكبر
عمر	الابن الأوسط
عماد	الابن الأصغر
الحاجة كريمة	الأم
حنان	أخت طه
أميرة	زوجة علاء
منى	زوجة عمر
لمياء	أخت منى وزوجة عماد
شهد	ابنة علاء
هاجر	ابنة عمر
أحمد	ابن عماد
عاصم كامل	الطبيب النفسي

الفصل الأول

في منزل شعبي قديم مكون من أربعة طوابق في منطقة (الرصافة) في (حي محرم بك) بـ(الإسكندرية)، كان يعيش الحاج (طه عبد الوهاب) مع زوجته القوية الصبورة وشريكة كفاحه الحاجة (كريمة) وأولاده الثلاثة: (علاء وعمر وعماد)، لم يرزقه الله بذرية من البنات، فكان كل أولاده ذكورًا، وقد اختار لهم جميعًا عند مولدهم أسماء تبدأ بحرف العين؛ تيمنًا بهذا الحرف، ولحمايتهم من العين، كما فعل والده، فيما عُرف في الأسرة بـ(إمبراطورية عين).

كانت أعمار الأولاد متقاربة، تتراوح ما بين (الثامنة عشر والعشرين)، أكبرهم هو علاء، طالب بالسنة الثالثة بمعهد أزهري، والأخَوان الآخران: عمر وعماد، يدرسان في كلية التجارة (جامعة الإسكندرية)، عماد شعبة محاسبة، بينما الأخ الأصغر عمر فهو في السنة الأولى شعبة إدارة أعمال.

أما الأب، فهو صاحب مخبز أفرنجي ينحدر من أصول ريفية، لذلك ظل لآخر وقت معتزًا بارتداء الجلباب في محل عمله، يقوم في مخبزه الذي لا يبعد كثيرًا عن محل إقامته ببيع المخبوزات والحلويات الشرقية. تشاركه في هذا العمل زوجته، الست كريمة التي تساعده في صنع المخبوزات المتنوعة

التي تميز المكان من البقسماط والباتيه والسواريه وباتون ساليه وكرواسون، وغيرها من المخبوزات، حيث نراها وهي تقوم في الصباح الباكر بإعداد الدقيق، وعمل الخليط، وتخمير العجين، وحشو المخبوزات بالملبن والعجوة والقرفة، ثم يقوم زوجها طه بإكمال الشق الثاني من العمل ومتابعة المخبوزات في الأفران والتعامل مع الجمهور.

كانت الست كريمة تعشق القطط وتدافع عن حبها لهذا الحيوان الأليف بضراوة، كما كانت تعتبر الرفق بالحيوان جزءًا من طقوسها اليومية، كذلك كان زوجها هو الآخر يتمتع بحس إنساني عالٍ، حيث يقوم كل صباح بشراء جوانح وعصارة الطيور من الفَرارجي القريب منه، وتقوم زوجته بطهيها على أنبوبة صغيرة موجودة لديها في المخبز، وإطعام القطط التي اعتادت التردد على الفرن كل صباح لتناول طعامها.

هذا الرجل وزوجته كانا مثالين للتقوى، والورع، وحب الخير، والمسامحة في البيع والشراء مع كل من يتردد عليهما، حتى إنه كان يبيع لزبائنه المخبوزات والمقرمشات بالآجل لمن لا يقدر على السداد الفوري؛ لأنه لا يريد أن يَحرِم أي إنسان يشتهي شيئًا ولا يقدر على شرائه، فكان يُيسر في التجارة انطلاقًا من قناعته بأن من كمال الإيمان التخفيف عن الناس والتيسير عليهم وقضاء حوائجهم، وكان يرى أن التجارة مع الله هي أعلى مراتب التجارة، وكان يتعامل مع الأمر من هذه الزاوية الدينية الخالصة، والتي تخلع على التجارة صبغة إنسانية.

كما كان طه يحافظ على الفروض الدينية، ويؤدي الصلاة في أوقاتها، سواء في المسجد القريب أو في زاوية خصصها للصلاة بمحل عمله، فما إن يُؤذَّن للصلاة حتى يتوجه إلى الوضوء، ثم يسلك طريق المسجد للحاق بصلاة الجماعة، وكان يحض أولاده الثلاثة دومًا منذ الصغر على المحافظة على الصلاة، بوصفها مفتاحًا للرزق وطريقًا إلى الجنة، وقد نشأ الأبناء وترعرعوا على هذه المبادئ الصحيحة، فلم ينحرفوا أو ينجرفوا، ولم يحيدوا عن الصراط المستقيم الذي رسمه لهم الوالد.

كان طه يعمل معظم الوقت في مخبزه في تحضير العمل، وقد اعتاد العمل لساعات طويلة بمفرده قبل أن تنضم إليه زوجته وتشاطره مسئولية إدارة المكان، وقد بدت هذه المرأة الشجاعة دؤوبة في تأدية عملها، كما كانت تتمتع ببديهة حاضرة وروح مرحة ومرونة في البيع والشراء على غرار زوجها، وقد استطاعت اجتذاب الكثير من الزبائن لمخبزها بفضل جودة منتجها، ورخص سعره، ولسانها الذي يقطر عسلًا.

كما حرص طه طوال الوقت على تجويد صناعته، حتى ذاع صيته بين أهل الحي وفي عموم المنطقة بمخبوزاته ذات الجودة العالية والزهيدة الثمن، ولهذا أحبه الناس وكثر الإقبال عليه، هذا الرجل، رغم مهنته التي هي صناعة لا تحتاج إلى مؤهل مدرسي إلا أنه كان مثقفًا جدًا، وإن كان لم يُكمل تعليمه حتى نهايته، غير أنه يحب القراءة، ويطالع الصحف اليومية، ويتابع أمور السياسة والصراعات والأحداث الساخنة الموجودة على الساحة

الدولية مثل (روسيا وأوكرانيا)، (فلسطين وإسرائيل)، ومأساة (غزة) الحبيبة، والمؤامرة الأمريكية الصهيونية لاحتلالها وتفريغها من أهلها، وحديث الرئيس الأمريكي (ترامب) المهووس بامتلاكها، والموقف المصري والعربي الرافض لكل هذه الخطط، ومقاومة (مصر) لكل خطط ومحاولات تهجير الفلسطينيين من أرضهم.

وينحاز، مثل أي عربي حر إلى قضية الشعب الفلسطيني وحقه المشروع في إقامة دولته المستقلة على أرضه، كان يعبر عن مواقفه الوطنية هذه وعن رغبته في الصلاة في (الأقصى الشريف) مع أصدقاء المسجد بعد أداء الصلاة، وأيضًا في حواراته مع صديقه الحاج (محمد البوري)، أقدم حلاق في المنطقة والذي كان يتردد عليه لقص شعره.

أما الأبناء، فبالإضافة إلى انشغالهم بالمحاضرات والكورسات والدروس، إلا أنهم كانوا يقتطعون من وقتهم عدة ساعات كل يوم؛ لمساعدة الوالد، فلم يتأخروا في مساعدة الأب والأم في عملهم متى سمح لهم الوقت بذلك، بينما الأب، فكان شاغله الأكبر والأهم هو مصلحة الأبناء وتفوقهم في دراستهم، مهما كانت الأثمان ومهما كانت التضحيات، وقد اعتاد على هذا المنهج معهم منذ أن كانوا أطفالًا صغارًا في المراحل الأولى من التعليم الابتدائي، حيث كان يشجعهم على التسابق على طلب العلم واستذكار الدروس والعلوم من خلال الإغراءات المادية التي يقدمها لمن تفانى في دراسته وفي أداء واجباته المنزلية، حيث يُحضر للمتفوق الأنواع التي

يشتهيها من أفضل المخبوزات، محفورًا عليها اسمه وتاريخ ميلاده، سواء كانت هريسة بالمكسرات أو بسبوسة أو غيرها من المخبوزات والحلويات التي تروق لهم مثل (الباتيه والساليه) التي كانوا يتنافسون على الظفر بها.

هذه الطريقة في التعامل مع الأبناء؛ لحثهم على الدرس والتعلم كانت إيجابية إلى حد كبير، وأتت ثمارها في التعامل مع الأولاد، وكان لها تأثير واضح في تنمية روح المنافسة والاهتمام بالتعلم، والابتعاد قدر المستطاع عن إدمان التكنولوجيا السلبية التي تهدر الوقت ولا تقدم نفعًا لمستخدميها، كما كان الأب يوصي أبناءه منذ الصغر بالمحافظة على الصلاة في أوقاتها التي يتواجدون فيها معًا.

ولم يكن الأب طه أزهريًا في تعليمه، بل إنه كما أشرنا لم يُكمل تعليمه أصلًا، ولكن برغم ذلك لديه حس ديني كبير، وفهم لصحيح الدين، وإقبال على الصلاة، وإمامة المصلين في المسجد، حيث كان يتمتع بشخصية مثقفة، كما كان متبحرًا في علم الدين وتغيير قناعات الخصوم والمشككين، فما إن يستمع إلى الآذان حتى يترك تجارته ومخبزه ويذهب لأداء الفرض.

وفي المساء عند عودته إلى منزله، يطمئن على حالة الأولاد وسير اليوم الدراسي، ويطّلع منهم على كل جديد في الدراسة، ويستمع منهم إلى المشكلات التي تواجههم في المواد الدراسية.

لقد انعكس نهج الوالد وتربيته على حياة الأبناء الذين كانوا مثالًا حيًا للانضباط والالتزام، يذهبون لجامعتهم ويعودون لمتابعة دروسهم وعلومهم، وفي العطلة الصيفية وبعد انتهاء العام الدراسي يتوجهون إلى مخبز الوالد؛ لمساعدته في تجارته وتوزيع العمل فيما بينهم؛ لتخفيف العبء عن الوالد والوالدة التي تتفرغ بدورها لمهام البيت بعد نزول الأبناء للعمل.

وفي مقابل ذلك كان الحاج طه يخصص لكل منهم راتبًا شهريًا مناسبًا نظير العمل معه، وذلك من أجل تحفيزهم وإشعارهم بالمسئولية وبأهمية عملهم، وقد كانوا على قدر المسئولية وأبلوا بلاءً حسنًا في المكان، وكانوا واجهة مشرفة للمخبز، حيث تضاعفت حركة البيع والشراء في وجودهم، بفضل دعاء الأم لهم عند كل صباح بأن يفتح الله لهم أبواب الرزق والخير، ويرزقهم من حيث لا يعلمون.

كانت هناك فوارق جوهرية بين الإخوة في أشياء كثيرة، في نظرتهم للأمور، وفي تحديد الأولويات والتوجهات وطرق الإنفاق.،حيث نلاحظ أن كلًّا منهم ينفق راتبه بطريقة مختلفة عن الآخرين، علاء مثلًا، وهو الأخ الأكبر ينفق راتبه على مظهره وأناقتِه، حيث يشتري ملابس جديدة ومستلزمات شخصية، بينما عمر ينفقه على لوازم البيت وهدايا لأمه ووالده، وكذلك شراء الالتزامات الضرورية اليومية كأن يشتري لوازم وحاجيات الأسرة من الأسواق ومن السوبر ماركت، أما عماد، فهو الأكثر حرصًا بين كل إخوته، فهو لا يميل إلى الإنفاق كثيرًا، ويفضل ادخار نقوده

في حساب بنكي يلجأ إليه عند الضرورة، وهو بخلاف كل أشقائه لا يحبذ الاحتفاظ بسيولة نقدية بين يديه حتى لا تتسرب منه في إنفاق لا داعي له.

بينما الأم، فهي شخصية قوية وحنونة، تجمع بين الحكمة وصلابة الشخصية، تكافح مع زوجها في الداخل والخارج، وينحصر دورها طوال فترة الصيف وإجازة الدراسة في العمل داخل الأسرة وتحضير وتجهيز بعض المخبوزات الصغيرة للزوج في أفران البيت، يحترمها الجميع، ويلتف حولها الأبناء، يُشاورونها في كل الأشياء والأمور؛ لرجاحة عقلها، واتزان شخصيتها، وحكمتها في التعامل، وبخاصة في المواقف الصعبة، ما جعلها محور التفاف واهتمام الجميع.

وفي أيام الراحة من العمل يُمارس كل واحد من الأبناء هوايته المفضلة، علاء يُمارس لعبة كرة القدم في خط الهجوم في نادي الشباب القريب من المنزل، وعمر هو الآخر يهوى لعبة كرة القدم، ولكنه يلعب ضمن حراس المرمى، ويشترك هو وأخوه في الدورات الصيفية من وقت لآخر، بينما أخاهم الأصغر، عماد، فهو على النقيض منهما، لا يهتم كثيرًا بكرة القدم، ولا يمارس أي رياضة، وإنما ينصب تفكيره على البزنس والتجارة والمكسب، ويعتقد أن التجارة وليست الرياضة هي الطريق الصحيح لبناء الإنسان الحقيقي ماديًا ومعنويًا، وتحسين واقعه ومستقبله بعيدًا عن الهوايات التي تسرق الوقت، فالرياضة هواية نافعة، ولكن لا يجب أن تصرفنا الهواية عن العمل الجاد والتربح وتحقيق مركز مالي، فالتجارة هي

وسيلة سحرية للمكسب السريع، لذلك كان يدخر أمواله التي يحصل عليها أول كل شهر من العمل الصيفي في مخبز والده، ويقوم بتجميع الأموال وتشغيلها في مشروع صغير مع أحد أصدقاء الدراسة، ريثما تتحين له فرصة تشغيل هذه الأموال في مشروع تجاري أكبر يعود بالنفع عليه.

كانت عائلة طه تقيم في بيت أهالٍ من أربعة طوابق، يسكن في أحد الطوابق العليا أرملة مستأجرة للشقة من وقت طويل، وفي الشقة المجاورة تسكن ابنة خال طه مع ابنتها الوحيدة من ذوي الاحتياجات الخاصة، وثلاث من الشقق الأخرى تركها مستأجروها نظير مبالغ مالية "خلو رجل" سددها لهم طه، وقد أغلق الشقق الثلاثة بعد إخلائها، واحتفظ بها لأبنائه الثلاثة؛ كي يبدأوا منها حياتهم بعد التخرج من الجامعة، وبذلك ضمن لكل منهم بعد التخرج مسكنًا للزوجية معه في نفس البيت، ولم يكن جميع الإخوة في أول الأمر يرحبون بالسكن والإقامة الدائمة في بيت العائلة بعد الزواج، فمنهم من كانت لديه طموحات وتطلعات للانتقال إلى مكان أفضل في عمارة سكنية حديثة، ولكنه نظرًا لارتفاع أسعار الشقق في الأحياء الراقية، ونظرًا لضعف الإمكانيات المادية، فقد وافق الثلاثة على أن يبدأوا حياتهم الزوجية في مسقط رأسهم الذي خصصه لهم الوالد.
وبعد حصول علاء على شهادة التخرج من المعهد الأزهري ظل لفترة قصيرة يعمل مع والده في إدارة المخبز إلى أن انتقل للعمل بوظيفة معلم لغة عربية بإحدى المدارس الابتدائية الخاصة، وقد عُرف عن علاء بين زملائه في

المدرسة سِمته الهادئ، وشخصيته الخجولة، وأدبه الجم، وحرصه على مشاعر المحيطين به من الزملاء والزميلات، فمنذ اليوم الأول من تعيينه في المدرسة وجد أن معلمي اللغة العربية في المدرسة كلهن نساء ولا يوجد من بين معلمي المادة رجل واحد إلا هو، فآثر التنازل عن مقعده في الغرفة، وامتنع عن دخولها إلا للضرورة القصوى، خاصةً وأن من بين المدرسات المتواجدات معلمة منتقبة، ورأى أن وجوده بينهن سيضيق عليهن في الحركة والكلام، فقرر الإقامة مع مدرسي مادة الرياضيات؛ حتى لا يتسبب في حرج لأحد، وقد أثنى الجميع على تصرفه هذا، وعلى نبل أخلاقه وحيائه، حتى أن إحداهن قالت: "ليت بيننا آنسة عذراء، كنا سنزوجها لهذا الزميل المحترم"، وبدوره أبلغ علاء أسرته برد فعل زميلاته لتخليه عن مقعده بينهن، وكيف أنهن كن يتمنين أن تكون بينهن عذراء ليزوجونه إياها، كذلك كانت أسرة علاء تفكر جديًا في اليوم الذي تشاهد فيه ابنها في بدلة الزواج إلى جانب شريكة الحياة، بعد أن اطمأنوا على وضعه ومستقبله وعلى قدرته وكفاءته في فتح بيت، وكانت الأم توعز له بالبحث عن معلمة زميلة له، وأن تكون ابنة حلال وابنة أناس طيبين، وأنها لن تتردد في أن تذهب إليها وتطلب يدها، ولكنه كان يقول بأنه لا توجد إنسانة محددة في ذهنه، وإن كل زميلاته في العمل متزوجات، وإن البحث عن شريكة حياة مناسبة قد يأخذ وقتًا، بينما الأم، فكان قرارها في هذه المرحلة بعد أن اطمأنت على مستقبل ابنها البِكر أن تفرح به مثل كل الأمهات، وأن تسعد

برؤية ذريته تلهو وتمرح أمامها؛ لذلك لم تألُ جهدًا في البحث له عن شريكة حياة، فالظروف أصبحت مواتية للإقدام على هذه الخطوة بعد أن أصبحت له وظيفة ثابتة تدر عليه دخلًا مناسبًا يمكنه من تحمُّل مسؤولية زوجة وأبناء، كذلك كان الأب هو الآخر تهفو نفسه لأن يرى ابنه وقد أصبح عريسًا، ثم رب أسرة، لينجب له الحفيد والحفيدة، كما كان يُمَنِّي نفسه دائمًا، وقد أشار على زوجته بأنه يرشح لابنهما فتاة رشيدة من بيت أدب، تُدعى (أميرة)، تعمل معلمة أطفال في حضانة (عطاء الرحمن) الموجودة في آخر الشارع، هذه الفتاة كما يقول تحضر إلى المخبز كل صباح وهي في طريقها إلى عملها، وتتوقف عنده لشراء الخبز والكعك للإفطار، لقد أصبحت زبونة دائمة للمخبز، وقد لمس فيها شخصية منكسرة وخلوقة، تطوق نفسها إلى الاستقرار، ولذلك رشّحها منذ اللحظة الأولى لتكون شريكة حياة لابننا، غير أني لم أُفاتحها في شيء، انتظرت حتى أعرف عنها كل شيء، هذه الفتاة أصبحت أكثر من مجرد زبونة، هي تعتبرني في مقام والدها -عليه رحمة الله- وأنا أضعها في نفس المنزلة، كانت معرفتي بها في أول الأمر سطحية، مثل أي مشتري عابر، ومع الوقت تعمقت العلاقة وأصبحت تثق فيّ وتُسِرُّ إليَّ بأسرار وخبايا حياتها، وتطلب مني النصح والمشورة، ومضى يقول: بعد التقرب منها علمت أنها فتاة يتيمة الأب، فقد تحدثنا طويلًا، ووجدتها تفتح قلبها بسرعة للحديث معي، يبدو أنها وجدت في شخصي الأب المفقود الذي تهفو روحها إليه لتلتمس عنده النصح

والمشورة، وعلمت منها أن والدها قد توفي وهي في المرحلة الإعدادية، وأنها تكافح في الحياة لتلبية احتياجاتها؛ لأنه ليس هناك من بين أهلها من تستند إليه وتتّكئ عليه، والحق أنني فكرت طويلًا في ترشيح هذه الفتاة لعلاء، فهي فتاة كما قلت لك منكسرة، ومن بيت أصل، ولا تعرف العيب، وأعتقد أن ابني سيكون محظوظًا إذا قدّر له الزواج منها.

وسرعان ما دخل على صفحتها على الفيس بوك؛ كي تشاهد زوجته صورتها، ومضى يقول: لقد كلفت أحد الشباب بتتبعها والسؤال عنها في الحي الذي تعيش فيه وبين أهل بيتها، وكما توقعت، جاءتني الأخبار السارة المبشّرة بأنها زينة البنات، وأنها حسنة السمعة والسلوك، لا بقعة في ماضيها، ولا غبار على حيائها.

وإذا بالأم تطلب منه أن يعرض الأمر أولًا على علاء، فهو صاحب الشأن والقرار والمخول وحده بالبت في مسألة ارتباطه، وإذا وجدنا لديه استجابة توكلنا على الله، وتوجهنا إلى بيتها أو هاتفناها تليفونيًا، وفاتحناها في أمر الارتباط، وطلبنا منها تحديد موعد نتوجه فيه جميعًا لمقابلة عائلتها وطلب يدها.

رحّب الوالد بهذا الكلام، وبالفعل انتظر عودة الفتاة في صباح اليوم التالي، وفاتحها في الأمر دون الخوض في مقدمات طويلة، حفاظًا على وقتها، ولحسن الحظ والصدف، كانت تعرف علاء جيدًا، وكانت تلتقيه في المخبز

في أوقات سابقة، فنظرت إلى الأرض في خجل، وطأطأت برأسها علامة على الموافقة.

وما إن انتزع الوالد موافقتها وبعد تأكيد القبول من الطرفين، توجهت أسرة علاء لمنزل أميرة، وجلسوا لبضع الوقت مع أمها وخالها المريض، الذي حضر خصيصًا إلى بيتهم من أجل هذه المناسبة، واطلعوا عن كثب على الحالة الاجتماعية للأسرة، وعلى الظروف المتواضعة التي تحيا فيها الأم وابنتها.

كانت أميرة هي الابنة الكبرى، ولديها أخ يصغرها في الثالثة عشرة من عمره، يُدعى (نور)، خرج إلى الدنيا بعد (ثلاثة) أشهر من وفاة والده، وبذلك لم يتسَنَّ له رؤية والده على الإطلاق، ولكن الأم نجحت في احتوائه وتعويضه رغم ضيق اليد، فنشأ سويًا، ولم تتأثر شخصيته سلبًا برحيل الأب في هذا السن المبكر، بينما الأم، فهي ربة منزل لا عائل لها، تعيش على معاش رمزي صغير تتقاضاه من وزارة الشؤون الاجتماعية، ومع ذلك تمكنت من تعليم ابنتها حتى تخرجت من الجامعة، كان أمل الأم هو أن تتخرج أميرة؛ ليزاح العبء الثقيل عن كاهلها، وتخرج إلى العمل؛ لتساعد معها في تعليم أخيها الأصغر، فلم تعد ظروفها الصعبة تسمح بمزيد من الإنفاق، فكل الجبهات مفتوحة عليها في وقت واحد، ولا عائل ولا معين سوى الله -سبحانه وتعالى-، حيث تفتقد الأسرة للعائل والسند. قالت الأم للحاج طه: "لقد أكرمني الله وشرفني بابنتي أميرة، التي أصبحت

هي السند بعد الله للأسرة، رغم ضعف إمكانياتها، ولكنها بارة بنا، لا تبخل علينا بشيء، رغم أنها الأحق والأولى بالمساعدة، ولكن ما باليد حيلة."

هذا الكلام عظّم من مكانة أميرة لدى طه وأسرته، وزادها شموخًا على شموخها، وزاد من إصرار الابن على الارتباط بها والزواج منها، لقد أبلغ طه أسرة أميرة بأنه يحدوه عظيم الشرف لأن يطلب يد أميرتهم لابنه الأكبر علاء.

وهنا ارتسمت علامات البهجة والسعادة على وجوه الجميع، وقالت الأم: "الشرف والعزة لنا بهذا النسب العزيز".

فأخبرها بأنه يمتلك بيتًا من أربعة طوابق، ورث جزءًا منه عن أسرته، وتمكن من تصفية الشركاء الآخرين بالتراضي، وبعد إخلاء الوحدات السكنية الثلاث في البيت قرر تخصيصها لكل واحد من أبنائه الثلاثة، لكل ابن شقة سكنية في هذا البيت العتيق.

رحبت أميرة وأسرتها بالزواج من علاء والإقامة معه في شقته الخاصة ببيت العائلة، ولم تُبدِ أي تحفظ أو اعتراض كما تفعل بعض الفتيات، فهي فتاة فقيرة، تفتحت عيناها على قسوة الحياة، ولم تذق طعم الرفاهية يومًا، أقصى طموحها هو الستر والاستقرار، ولا مطامع لها من الدنيا أكثر من شريك حياة يحتويها ويعوضها عن سنوات الحرمان الطويلة، كما أن أمها أيضًا سيدة بسيطة، تنظر بامتنان وفخر لهذا النسب من عائلة مشهود لأفرادها بالتدين والصلاح، وتمثل خير سند لها، غير أن الأم بالرغم

من ذلك بدت قلقة ومتوترة، وترى أن هناك عقبة قد تُعطل الزواج أو تُؤجله، واستحيت أن تبوح بها، هذه العقبة كانت في عدم اكتمال جهاز ابنتها، فما زال أمامها الكثير من الأغراض لم تُستكمل، مع ندرة الموارد، كانت صريحة في كشف ظروفها المادية لأسرة طه، رغم أنها لم تكن تنوي ذلك، لكنها رأت ضرورة وضع أهل العريس أمام ظروفها منذ البداية، حتى لا يكونوا في عجلة من أمرهم.

قالت كلماتها وقد احتبست الدموع في مآقيها خشية من ضياع هذا النسب.

فطمأنها طه قائلًا: لا تقلقي ولا تحزني، فهذا مقام فرح وبهجة، وليس مقام همٍّ وحزن.

وقال بطيبته المعهودة:

- هذه مناسبة للسعادة، وليست للحسرة والكمد، نحن لم نأتِ لنفجر بركان الدموع في عينيك، ولا لنتشفى من قلة حيلتك، ابنتك من الآن فصاعدًا هي ابنتي، ومسؤولة مني، وتعزيزها وتكريمها أصبح واجبًا عليّ ودَينًا في عنقي، طالما تمنيت ودعوت الله أن يرزقني بابنة إلى جانب أبنائي الذكور، وقد استجاب الله لدعائي، فلا تيأسي من رحمة الله، ولا تهني، ولا تحزني، لقد أرسل الله لها كرمًا ورزقًا وفيرًا؛ لأنها مباركة، وأنتم أهل خير وبركة وعفّة.

تنفّست الأم الصعداء بعد هذا الكلام، وكانت في دهشة لا تُصدق ما تسمع، فقد أزاح هذا الكلام عن كاهلها عبئًا ثقيلًا كانت تنوء بحمله، وبدّد كل دواعي قلقها وخوفها من الغد، ويسّر عليها أمرًا كانت تراه عسيرًا؛ لذلك لم تتمالك نفسها من البكاء والفرح، ورفعت أكفّها لله شكرًا وحمدًا.

طلبت من علاء وقد غلبها الخجل أن يكون حفل الزفاف عائليًا؛ لأنها لا تريد أن ترهقه بنفقات إضافية، وحتى لا تحمّلهم مزيدًا من الإنفاق، لكن والده انتفض من مكانه، وقال:

- هذه ليلة وحيدة في العمر، ولن أجعلها تمر دون أن أدخل البهجة على قلوب العروسين، أميرة ليست أقل حظًا من غيرها، ويجب أن تفرح ويسعد الجميع معها، سأحجز لها عرسها في إحدى القاعات الكبرى، وسأقيم لها ليلة تليق بها، فهي ابنتي، وسعادتها واجبة علينا.

بهذه الشهامة والمروءة، وبهذا الحنان الأبوي، وبهذه الطريقة المثالية، كان طه يتعامل مع عروس ابنه البِكر التي اعتبرت نفسها محظوظة بهذا النسب المشرف، والحق أنها كانت محظوظة فعلًا، حيث عاشت في كنف هذه الأسرة الطيبة في سلام نفسي لم تعهده من قبل، وشهدت الأشهر الأولى من زواجها تحسنًا واضحًا في حالتها النفسية ومزاجها، وظهرت عليها آثار النعمة.

لقد استجاب علاء سريعًا لأوجاع أميرة، وقام بترميم نفسها واحتوائها وتعويضها، فرأت فيه نعم الزوج والسند، فأحبته وأخلصت له.

وهو الآخر اعتبرها هدية من الله، فقد وجد فيها الزوجة المطيعة التي لا تنتقص من زوجها، وتستر بيتها بأقل القليل، ولا تبالي، ورزقهما الله بعد عامين من الزواج بطفلة جميلة أسماها (شهد)، ملأت البيت فرحًا وبهجة، وكانت بحق فاكهة العائلة وقرة عين جدها.

وبعد عامين من زواج علاء، تخرج الابن الأوسط عمر من كلية التجارة، وتمكن من العمل سريعًا بوظيفة محاسب بإحدى شركات صناعة الأخشاب، وهناك تعرّف على سكرتيرة حسناء تُدعى (منى)، كانت حديثة التعيين في الشركة.

وقد وقع في حبها سريعًا، وارتبط معها بعلاقة عاطفية، واتفقا معًا على الخطوبة والزواج، شرح لها تفاصيل حياته، ووضع النقاط على الحروف حتى لا تُفاجأ بشيء، وأخبرها بأنه سيبدأ حياته الزوجية في شقته في بيت العائلة، وقد رحّبت بذلك، وما إن توطدت أقدامه في العمل، حتى أبلغ والده برغبته في الزواج، وطلب منه أن يحضر معه لطلب يد زميلته في العمل، وأخبره بأنه يشعر بميل عاطفي نحوها، وقد شرح لها ظروفه، فأبدى الوالد موافقته على الذهاب معه للتعرف على أهل زميلته وطلب يدها، كما

عبّرت الأم عن سعادتها الغامرة بهذه الخطوة المباركة، واتفقت مع ابنها على تحديد موعد قريب لزيارة أسرة منى.

في الموعد المحدد ذهبت الأسرة للتعرف على أسرة منى، وكانت فتاة متوسطة الحال، تعيش مع أسرتها في (منطقة وابور المياه)، وهي الابنة الكبرى لوالديها، ولديها أختان، إحداهما تدرس في (كلية الآداب)، والأخرى في السنة الأخيرة بـ(لمعهد العالي للسياحة والفنادق).

التقى الحاج طه بوالد منى، وتعارفا وتناقشا في كل شيء تقريبًا، واتفقا على كل التفاصيل، وقبل نهاية اللقاء قرؤوا الفاتحة معًا على ما تم الاتفاق عليه،

واتفقوا على ترتيبات الزواج والدخلة خلال شهرين فقط، حيث كانت أسرة منى قد أعدّت نفسها مسبقًا لهذه الخطوة.

وبالفعل تم عقد القران في الموعد المتفق عليه، وأُقيم لها عُرس يليق بها في نفس القاعة التي شهدت قبل عامين عرس أخيه الأكبر، وتم الزواج بفضل الله ورعايته، وانتقل عمر إلى مسكن الزوجية في بيت العائلة، في الطابق الذي يعلو شقة أخيه الأكبر، وشهد بيت العائلة حالة جميلة من الدفء العائلي والاندماج والألفة بين الإخوة وزوجاتهم.

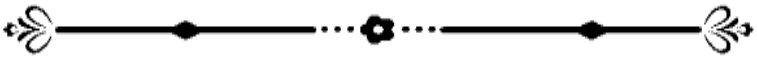

ولم تكن هناك رغبة من أحد في الانغلاق على نفسه والاستقلالية عن الآخرين، بل جمعهم الود والحب والتآخي حتى صاروا جميعًا أشبه بأسرة واحدة كبيرة، وليسوا جيرانًا تفصل بينهم حوائط وجدران، وكان الحاج طه يحرص من وقت لآخر على لمّ شمل الجميع والتفافهم حول مائدة واحدة؛ لتعميق الروابط فيما بينهم.

ظلت منى محتفظة بعملها حتى بعد الزواج، وقد تمكنت من إنجاب مولودتها الأولى بعد أقل من عام من الزواج وأسَمَتها (هاجر)، وهي الحفيدة الثانية التي ضاعفت من أفراح البيت وملأت قلوب والديها سعادة وفرحًا.

****

الفصل الثاني

كانت أنظار الجميع تتجه نحو عماد، الأخ الأصغر، وهو الشاب الأكثر وسامة ومرحًا وخفة ظل من بين كل إخوته، لتحفيزه على اتخاذ خطوة مشابهة لإخوته على وجه السرعة، بمجرد حصوله على شهادة التخرج بعد أقل من شهرين من الآن.

الوالد والوالدة لا يعارضان هذه الخطوة، ويرغبان في إكمال الرسالة التي بدآها مع إخوته، والعمل على مساعدته أسوةً بباقي إخوته حتى يكون له بيت وأسرة وأبناء، وينجب الحفيد لهم حتى تكتمل الفرحة، ويبدو أن هناك من يتربص به ويضعه تحت المجهر، حيث كانت زوجة أخيه الأوسط منى، ترشحه ليكون زوجًا لأختها التي تدرس في السنة الأخيرة في المعهد العالي للسياحة والفنادق، لإعجابها الشديد بشخصيته، ليكون عريس المستقبل لأختها.

ولكن عماد لم يكن شخصية طيعة يسهل ترويضها، وإنما هو شخص عنيد لديه كيمياء خاصة في شخصيته. وهو رغم جاذبيته الملفتة، يُعد شخصية صعبة المراس في الأسرة، فهو شديد الاعتزاز بنفسه، ومن الصعب اقتياده، أو توجيهه، أو فرض خيارات لا يريدها عليه، أضف إلى ذلك أنه لا يفكر في مسألة الزواج والارتباط بنفس الحماس الذي كان

موجودًا لدى إخوته بعد التخرج، فلديه اهتمامات وأهداف أخرى يسعى إلى تحقيقها، تُعد أكثر أهمية بالنسبة له من فكرة الزواج، ولديه طموح في الهجرة والترحال، ورغم ذلك فإن الأنظار مسلطة عليه، فما إن تخرج وحصل على تقدير مرتفع في شهادته، حتى حضرت إليه زوجة أخيه منى بصحبة أختها الحسناء لمياء لتهنئته بالتخرج، وأحضرت كلٌّ منهن هدية قيمة تكريمًا له بهذه المناسبة.

بدا عماد شاردًا مذهولًا من هدية لمياء، التي لا تربطه بها علاقة أو حتى سابق معرفة، ولكنه كان مشدودًا إليها معظم الوقت، خاصة بعد أن ساعدته بمعلوماتها في إدخال برامج جديدة وتطبيقات حديثة كان يبحث عنها على جهاز الحاسب الآلي الخاص به، كما أن تصرفاتها وطريقة حديثها كانت تفصح عن إعجابٍ لم تستطع أن تبوح به أو تخفيه، وعلى الرغم من اختلافه عن إخوته في عدم تحمسه كثيرًا لفكرة الارتباط، وإسقاط هذه الفكرة من سُلّم أولوياته، وهو ما يعرفه عنه أهله وأصدقاؤه، إلا أنه على ما يبدو بدأ يثور من داخله على قناعاته القديمة ومواقفه التي عفا عليها الزمن، لقد دفعته لمياء بحنانها الزائد وطيبتها إلى أن يعيد النظر في قناعاته السابقة، وعلى الرغم من أنه ظل لفترة يقاوم جاذبيتها وتأثيرها، إلا أنه استسلم في آخر المطاف للوقوع في شباكها وحبائلها، حيث كانت تعمد إلى التردد بشكل متكرر على بيت العائلة وهي بكامل أناقتها، للفت انتباهه ووضعه في حالة صراع دائم بين قناعاته القديمة وتطلعاته الجديدة.

لم تكن لمياء تؤدي دور المحبة المفتونة بعماد، ولم تكن لديها أهداف ومآرب أخرى من وراء إثارة مشاعره وتحويل انتباهه نحوها، ولكنها وجدت فيه منذ اللحظة الأولى التي وقعت عيناها عليه شخصًا يمتلك الكثير من المزايا النادرة التي تنشدها في شريك حياتها، كما رأت فيه مقومات الزوج الذي تحلم به، حيث يتمتع بروح رياضية، وكرم أخلاق، وأناقة مظهر، ومؤهلات علمية، ووسطٍ مشهودٍ له بالاحترام والكرم، كما أن الزواج منه يوفر لها ميزة كبرى، وهي السكن والإقامة إلى جوار أختها التي تحبها، فوق كونه يتمتع بوسامة وخفة ظل من تلك التي تداعب قلوب العذارى؛ ولذلك كان قرارها "أبدًا لن أجعله يضيع من يدي"، لقد علمت لمياء من أختها بأن عماد يبحث عن عمل مناسب بعد أن حصل على شهادة التخرج، وأنه قدم مسوغات تعيينه لأكثر من جهة؛ لأنه لا يريد أن يعمل في مخبز الوالد، فوعدتها بأنها ستهتم بالأمر، وستبذل قصارى جهدها لتعيينه معها في الشركة، وبالفعل لم تتأخر، وتوسطت له في اليوم التالي لدى رئيس مجلس الإدارة لديها للعمل في شركتها، وأمكن تعيينه بوظيفة محاسب في الشركة معها، وقد وفر لهما العمل معًا فرصة نادرة للحديث عن قرب عن آمالهم وتطلعاتهم، ومعرفة بعضهما البعض بصورة أوثق وأعمق، واستكشاف مكانة كلٍّ منهما لدى الآخر بعيدًا عن أنظار العائلة، لقد وجد عماد نفسه وجهًا لوجه أمام لمياء، ولكنه في بادئ الأمر لم يكن يوليها اهتمامًا، بل بدأ منهمكًا في عمله، وكانت هي تراقبه باستمرار عن بعد،

وتتحين الفرصة المناسبة لكي تتحدث إليه، وجاءتها الفرصة وتحدثت إليه بعد طول صبر وانتظار، وأبدت إعجابها الصريح بشخصيته وبذكائه، ومع مرور الوقت توطدت العلاقة بينهما، وبعد ثلاثة أشهر من العمل معًا في الشركة استطاعت تغيير معتقداته عن الحب والزواج، بل وأكثر من ذلك، جعلته يحبها وبقوة، وبرغم الحذر المعهود عنه في خطواته، إلا أنه أحبها، وأصبح هو من يسابق الوقت للارتباط بها، لقد سألها ذات مرة عما إذا كان هناك شخصٌ ما في حياتها، وكان يعرف جيدًا، من تفاصيل حياتها أنها تميل إليه.

فسألته عن سبب السؤال؟

فأجابها بهدوء شديد وبصوت منخفض؛ لأنه يرغب في التقدُّم لخطبتها.

حاولت لمياء السيطرة على مشاعرها وإخفاء فرحتها، وقالت:

- نعم، هناك شخص ما في حياتي.

نظر إليها عماد في ذهول، وقد توقفت عن الكلام لبرهة، ثم قالت:

– وهذا الشخص هو أنت.

تنفّس عماد الصعداء، وتغيّرت تقاسيم وجهه، وبدا مسرورًا بهذه الإجابة، وقال:

- يبدو أننا خُلقنا لبعض، وأن كل محاولات الهروب من فخ الزواج والتحايل على رغباتنا المشتركة قد باءت بالفشل.

وبالفعل عرض مسألة الارتباط من لمياء على أسرته، وكانت الأسرة على علم مسبق بمشاعر لمياء تجاه عماد، وكان الجميع يرشحونها لتكون زوجة له، وتمت خطبتهما في عرس كبير جمع الأهل والأصدقاء، وعمّت الفرحة المكان، وملأت البهجة قلوب الجميع، وغمرتهم السعادة، وبخاصة والد عماد ووالدته اللذين ابتهلا إلى الله شكرًا بإتمام رسالتهما تجاه الأبناء الثلاثة، وإيصالهم جميعًا إلى بيوتهم.

شعرت الأم بعد زواج آخر أبنائها بالراحة والسكينة، ولكنها مع مرور الأيام بدأت تستشعر الضجر والوحدة، فهي لم تعتد أن تجلس بالساعات دون أن يطرق بابها أحد؛ لذلك كانت تحدّث نفسها وهي تتأمل في أسرّة أولادها الخاوية بأن البيت فرغ عليها، وأن هذه هي سنة الحياة، لذلك نراها تشغل وقتها بقراءة القرآن طوال فترة تواجدها في المنزل، والذهاب إلى المخبز لمساعدة زوجها في عمله، وإن كان الأبناء قد انتبهوا بعد فترة وجيزة من زواج عماد إلى ضرورة عدم ترك أمهم بمفردها، ودعوها إلى الإقامة لديهم، غير أنها كانت تفضّل الإقامة في بيتها على كل بيوت أبنائها، فكانت تجلس في بيتها أمام التلفاز تتابع تلاوة القرآن الكريم، ولكنها استجابت أخيرًا لمطالب أبنائها بعدم الخلوة إلى نفسها كثيرًا، فبدأت توزع وقتها بين أبنائها الثلاثة المتواجدين معها في نفس العقار، والذين يتنافسون على ضيافتها؛ لنيل البركة والرضا، وإن كانت هي رغم ترددها على الجميع تفضّل دومًا البقاء في منزلها وحفظ سور من القرآن الكريم، وكان الجميع يترددون

عليها في الذهاب والإياب، حيث يحتفظ أبناؤها الثلاثة بمفاتيح الشقة؛ للاطمئنان عليها وتلبية مطالبها.

أما الحاج طه فهو الآخر يُعد بركة البيت وكبير العائلة، لقد تفرغ بعد زواج عماد لمخبزه، وكعادته التي لم يطرأ عليها تغيير يُذكر، يخرج في الصباح إلى عمله، يمارس روتينه اليومي في تحضير وتجهيز المخبوزات بالتعاون مع زوجته ومساعده، حيث نراه ينقل العجين إلى كسارة العجين التي تقوم بتقسيمه وتقطيعه إلى ست وثلاثين قطعة، وبعد أن ينتهي من عمله هناك، ينتقل إلى كسارة العيش الفينو، والتي تقوم أيضًا بتقطيعه إلى ست وثلاثين لقمة، وإلى جواره مساعده الذي يعمل على العجانة وعلى كَوّارة العجين، كما كان يحرص على صلاة الجماعة في مواعيدها، وإمامة المصلين، فما إن يستمع إلى الأذان حتى يتوجه إلى المسجد القريب في أوقات الصلاة لأداء الفرض، وفيما عدا ذلك نراه منهمكًا في عمله بلا كَلَل أو تعب حتى وقت متأخر من الليل، وفي المساء يعود إلى البيت وهو يحمل معه الجبن والألبان والخبز الطازج الذي أحضره من مخبزه، والمخبوزات المكسوة بالشوكولاتة السائلة لحفيدتيه شهد وهاجر، كما نراه يتابع مع زوجته شؤون البيت، والالتزامات المادية على الأسرة، والأقساط المستحقة عليهم بعد الزيجة الأخيرة لعماد، والتي كلفتهم الكثير، فما يميز فكر طه هو أنه يحسب خطواته جيدًا، ويبدأ في تدبُّر كل شيء قبل الإقدام على أية خطوة، ويدرس كل أمر بصبر وتروٍّ قبل الشروع فيه، وها هو يضع في يد زوجته

مصروف البيت، كما اعتاد على ذلك، والمبلغ الشهري المستحق للجمعية الكبيرة التي يشارك فيها والتي نذرها لزيارة الأراضي المقدسة وأداء مناسك الحج بعد أن اطمأن على الأبناء، وشاهد الأحفاد، ونال من الدنيا كل ما تمناه، فما يحتاجه الآن هو زيارة الأراضي المقدسة ليعود منها كما ولدته أمه، وليؤكد من هناك الحمد والشكر لله على ما منحه إياه من فيض نعمه، فلديه شوق كبير بأن يكتب له الله هذه الرحلة المباركة التي أصبح التفكير فيها هو شغله الشاغل، فنفسه طوّاقة لأداء فريضة الحج؛ لذلك كان يطمئن كل فترة من زوجته على ما تبقّى له من وقت للوصول إلى دوره في الجمعية، وكان يهمس في أذنيها دومًا قائلًا:

- لقد قدّمنا للدنيا الكثير، ولم ندّخر شيئًا للآخرة، فعلنا كل ما في وسعنا من أجل الدنيا، وتقريبًا انتهينا من كل شيء، وبقي لنا شيء وحيد هو أن نعمل من أجل الآخرة.

وكان جواب الزوجة عليه بأن ما قدّمته في حياتك هو رصيد عامر من الخيرات، سيجازيك الله عنه خير الجزاء في الدنيا والآخرة، ولكنه يريد أن يختم رحلته بحجّة، ويرى أن فريضة الحج هي مسك الأعمال وأرفعها شأنًا؛ لذلك رأيناه في كل وقت يعيد السؤال عن مصير الجمعية ودوره فيها، وكأنه يستعجل صرفها، ويستعجل الشهور أن تمر؛ لأنه يشعر – والكلام على لسانه – بأن الأراضي المقدسة تناديه في صحوه وفي منامه، وما إن توقّف عن السؤال عن الجمعية وتناسى الأمر، حتى مرّت الأيام والشهور بسرعة

أكبر مما توقّع دون أن يدركها، ودون حتى أن ينتبه إليها، مما دعاه إلى التعجّب!

الأيام التي كان يراها ثقيلة طواها الزمن وانقضت، لقد مرت بسرعة دون أن يشعر بها، وها هي جارته الحاجة (أم يسرى) تحضر إلى منزله تحمل معها جمعيته وتهنئه مقدمًا على أداء فريضة الحج، وها هو قد تمكن أخيرًا من الإمساك بنقود الجمعية، وكانت رقمًا كبيرًا، فتوجه على الفور إلى إحدى شركات الطيران لحجز رحلة الحج؛ خشية أن تتسرب النقود من بين يديه، وأن تذوب في تجارته، وبالفعل تمكن من الحجز، وحصل في وقت قصير على تأشيرة السفر، وودع عائلته وأبناءه وأحفاده، وسافر إلى الأراضي المقدسة في هذه المهمة الروحانية ليفتح صفحة جديدة مع الله، لقد بدا وجهه متوردًا من الفرح والسعادة، غير مصدق هذه اللحظة الخالدة التي يحياها، لم يصدق أن الله قد منَّ عليه بحج بيته.

التف الأبناء حوله قبل مغادرته، الجميع سأله الدعاء في الحرم، وكان لزوجة ابنه الأكبر علاء طلب متواضع، وهو أن يحضر لها زجاجة صغيرة من ماء زمزم، هذا هو كل ما تريده، التزود بهذا الماء الطاهر العذب، بينما منى، زوجة عمر، والتي بدأت تظهر على كفّي يديها بعض آثار البهاق الخفيفة، طلبت منه أن يحضر لها دهانًا نافعًا من هناك يمحو هذه الآثار قبل انتشارها على باقي الذراع، وقد وعدها بأن يحضر لها ما تريد، كان يسجل

مطالب الأبناء والأحفاد في أجندة صغيرة؛ حتى لا ينسى شيئًا، ثم ودع الأسرة وقبّل رأس زوجته والتحق بالرحلة.

وبعد استقلال الطائرة، وفي الطريق إلى الأراضي المقدسة انخرط طه مع باقي أفراد فوج الرحلة في الدعاء والتكبير، حتى إذا عبرت الطائرة المصرية الأجواء السعودية دمعت عيناه من الفرحة بالوصول أخيرًا إلى هذا المكان الذي طالما مَنَّى نفسه بزيارته.

وفور وصوله إلى مكة والمدينة، شعر طه براحة غير عادية، راحة شديدة لم تبلغها روحه من قبل، وبدأ متحمسًا لأداء الشعائر والمناسك، لا يريد أن يضيع أي وقت هناك، بل كان مقبلًا على العبادة، يغدو ويروح إلى المسجد من الفندق الذي يقيم فيه سيرًا على الأقدام طمعًا في زيادة الأجر، وقد أمضى فترة المناسك في سباق على العبادة والتهجد، لم يستسلم للنوم إلا لساعات قليلة في اليوم؛ لأنه يريد أن يستثمر كل وقته في الطاعات والعبادات؛ لتعويض ما فاته، حتى تقمصته حالة من النورانية والتجلي، هذه الحالة التي تقمصته لم تكن شيئًا مألوفًا أو معتادًا بالنسبة له، إنما كانت حدثًا استثنائيًا فريدًا يعتريه لأول مرة، ما جعله يتوسم في نفسه الصلاح والاستقامة.

لقد سرت في نفسه البهجة والسعادة بما تحقق له في هذه الرحلة، لقناعته الشديدة بأنه بلغ مرتبة من الروحانية والصفاء أوصلته إلى هذه المكانة، لقد طمأنته هذه الحالة على قوة إيمانه وعلى حسن علاقته بالله،

الذي كشف له الحجب، وقربه إليه، ورفع مكانته ومنزلته بهذه الرؤى الإيمانية المباركة، وأصبح مدركًا بأن الله ما كان ليمنحه مثل هذه الطاقة الإيمانية لو لم يكن راضيًا عنه تمام الرضا.

هذا الرجل البسيط بدا مسكونًا بفيض إلهي وروحانية عالية في هذه الرحلة العامرة بالإيمان، لكن الأمور لم تكن كلها إيجابية، بل حدثت له مفاجآت غير سارة، فكان يمتصها ويتجاوزها إيمانًا منه بأنها أيام امتحان وابتلاءات واختبارات من الله؛ لقياس صدق الإيمان وقوته، لقد انتهت مناسك الحج، وبينما هو يحزم حقائبه ويستعد لرحلة العودة جاءته أخبار طيبة، وأنباء مفرحة من أسرته بأن العائلة زادت فردًا، وأن الله قد منَّ على الأسرة بالحفيد الجديد، وأن لمياء، زوجة ابنه الأصغر عماد، قد رزقها الله بمولودها الأول، طفل جميل أسمته (أحمد)، وهو الحفيد الثالث للأسرة بعد شهد وهاجر، ابتهج طه عند سماعه هذا الخبر، وشكر الله على موفور كرمه وفضله، وطلب منهم أن يرسلوا صورة الحفيد على الواتس، وقرر أن يذهب على وجه السرعة لشراء هدايا وملابس ولُعب للحفيد الجديد الذي طالما منى نفسه به، كما اشترى ملابس وهدايا لحفيدتيه شهد وهاجر، ولم يستثنِ أحدًا من أفراد العائلة من الهدايا، كما أحضر دهان البهاق ومياه زمزم لزوجات الأبناء، ومسابح وسجاجيد صلاة للأبناء، وعند وصوله إلى أرض الوطن استقبلته العائلة بالتهاني والزغاريد، وطلب رؤية الأحفاد الثلاثة، وقدم لهم الهدايا واللعب التي أحضرها معه، وحمل المولود

الجديد وضمه إلى صدره، ثم داعب زوجات أبنائه الثلاثة مطالبًا إياهن بأن يملأن البيت أولادًا، وألا يكتفين بطفل واحد، وألا يكتفين بهذا الإنتاج الهزيل، ثم توقف قليلًا عن الكلام ليتأمل حصاد السنين، وهو ينظر في وجوه الأبناء والأحفاد، وإذا به يقول:

"أنا أعرف أن الأحفاد يأتون إلى الحياة ليذكرونا بما لا نريد أن نعلمه أو نتعلمه، وأنهم إنما يأتون ليخبرونا باقتراب النهايات، وبأن أيامنا في هذه الحياة صارت معدودة، وبأن رصيدنا من العمر يوشك على النفاد، مما يدفعنا لأن نتحسس مواضع أقدامنا عند كل خطوة نخطوها".

وهنا ردت عليه زوجة ابنه الأكبر، أميرة متمنية له دوام الصحة وطول العمر، وأن يظل البيت عامرًا بوجوده، وألا ينقطع له صوت عن بيتهم. لقد سأل طه زوجته وأبناءه عن سير العمل في المخبز طوال فترة غيابه، فطمأنته الحاجة كريمة بأن كل شيء يسير على ما يرام، وبدأ متلهفًا لمباشرة مهام عمله واستئناف تجارته؛ لذلك لم يؤخر عودته إلى عمله لعدة أيام، بل عاد في اليوم التالي إلى المخبز لمباشرة عمله، حيث كانت الزوجة والأبناء يتناوبون الإشراف على المخبز طوال فترة غيابه.

كان طه يعشق العمل في مخبزه، حتى في أصعب ظروفه، ويعتبر التواجد بين تجارته جزءًا من طقوسه وروتينه اليومي، حيث لا يمل من البقاء لفترة طويلة في محل عمله مع مساعده، وتمضي الأيام والسنين

سريعًا، ولكن لا شيء يتغير سوى مزيد من العمر يُضاف على عاتق السنين التي تُثقلنا.

وكبر الأحفاد الثلاثة وصاروا يلعبون ويمرحون حوله ويملؤون البيت والمخبز صَحبًا وحياة، كبرت شهد التي ترتبط بجدها بعلاقة خاصة؛ لأنها أول أحفاده وأكثرهم ارتباطًا وتعلقًا به، فقد تعلق قلبه بها منذ اليوم الأول لمولدها، وتكفّل بمسؤوليتها من إنفاق وتعليم، وها هي الآن قد أصبح عمرها ثماني سنوات، بينما الحفيدتان الأخريان هاجر تصغرها بعام، وأحمد يصغرها بعامين.

كان الجد يباشر تعليم شهد ويذاكر معها، ولم يكن يُهمِل باقي أحفاده، بل كان قريبًا من الجميع بحنانه الفطري، وكان يلعب معهم جميعًا، يُحضِر لهم المخبوزات والشوكولاتة من مخبزه، وتغمره الغبطة والسعادة بالتفاف الأحفاد حوله.

شهد هي الأكثر قدرة وفصاحة في اللسان والكلام، لذلك كان الجد يعتبرها أهم صديقة له في البيت، يُصطحبها معه في تحركاته، ويقوم بتوصيلها بنفسه في بعض الأوقات إلى المدرسة، ويضع لها في اللانش بوكس -صندوق الطعام- المخبوزات التي تشتهيها وعصير التفاح الذي تفضله، وفي المدرسة يقدم المخبوزات الطازجة من مخبزه للعاملة والأخصائية، ويوصيهما بحسن معاملتها ومتابعتها، حتى إذا انتهى العام الدراسي بكل ما فيه من ضغوط وشحن عصبي، وحل فصل الصيف يبدأ الجد طه كما

اعتاد هو وأبناؤه وأحفاده أن يذهبوا جميعًا لقضاء أسبوع مصيف في محافظة (مطروح)، حيث يقوم عماد وزوجته بالتنسيق والحجز لدى شركة رحلات في النصف الأول من شهر (يوليو)من كل عام، الجميع، كبيرًا وصغيرًا ينتظر هذه الرحلة بفارغ الصبر ؛ للتحرر من ضغوطات الدراسة، والعمل، وحرارة الشمس المحرقة، الكل أعد العدة، وحزم حقائبه، وجهز نفسه وعائلته؛ تأهبًا لساعة الصفر التي تقرر فيها العائلة التحرك والانطلاق في طريق الرحلة.

****

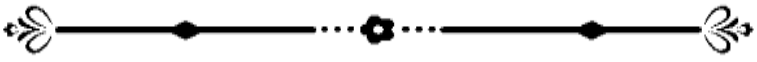

الفصل الثالث

استقلت عائلة عبد الرحمن أتوبيس الرحلة المتجه إلى مدينة (مرسى مطروح) في الموعد المحدد سلفًا من أمام مسجد (القائد إبراهيم)، وقد غمرتهم الفرحة والسعادة، وعبّروا عن هذه الفرحة بالغناء والتهليل وهم في طريق الرحلة، وملأ الأولاد الحافلة صخبًا ورقصًا وبهجة لم تألفها العائلات من قبل.

كان برنامج الرحلة ممتلئًا بزيارة الشواطئ المختلفة في المدينة مثل: (الشاطئ الجديد، وشاطئ روميل، وكليوباترا، وسهل حشيش، والأبيض، وشاطئ الغرام)، بالإضافة إلى حفلات السمر في بعض المسارح والملاهي، وما إن وصلوا إلى المدينة في ساعة متأخرة من الليل، حتى توزعوا على مساكنهم وقد غلب عليهم الإجهاد والتعب، فاستسلموا للنوم سريعًا، وفي الصباح الباكر اصطفوا جميعًا أمام أحد المحال التجارية في انتظار أتوبيس الرحلة لنقلهم إلى الشاطئ، وبينما ينتظرون قدوم الباص استوقف انتباه الحاج طه وجود مخبز "أفرنجي" بالقرب من مكان الانتظار، فتقدم إليه لمعرفة نوعية المخبوزات في هذه المدينة، ولفت انتباهه تشكيلة من المخبوزات المتنوعة والجديدة والبسيطة، والتي قرر أن يصنعها بنفسه في مخبزه عند العودة، لقد كان من عادته أثناء هذه الرحلة متابعة كل ما يخص المهنة التي يعشقها،

والتي أمضى فيها جل عمره، والدخول في حوار مع أصحاب المخابز التي تسترعي انتباهه، ومعرفة الأسعار والمكونات والفارق بين (الإسكندرية ومطروح) في المقادير والنوعية، استمع لإجابات مختلفة جعلته يتمنى لو كان له مخبز في هذه المدينة الساحرة، وما إن أنهى حواره مع صاحب المخبز، حتى صعد إلى الباص مع أسرته، وانطلقوا جميعًا إلى شاطئ (كليوباترا) وفق برنامج الرحلة في اليوم الأول، وهناك انشرحت قلوب الجميع بروعة المياه ونقائها.

كان الحاج طه يكتفي بالجلوس هو وزوجته على الشاطئ يتابع الأحفاد الثلاثة الذين يلعبون ويلهون، بينما باقي الأهل نسوا أنفسهم في المياه، ولم ينشغلوا بشيء إلا بجمال اللحظة، أما طه، الذي يتأمل في ملكوت الله من حوله، فقد وجد الفرصة مناسبة لاستعادة ذكريات الشباب مع زوجته واسترجاع المواقف القديمة التي مرت عليها سنوات طويلة منذ أيام زواجهما الأولى، وعن أول شاطئ توجها إليه بعد الزواج قبل إنجاب الأولاد، وكان شاطئ (جليم) كما يذكران، تحدثا عن كيف كانت الحياة في الماضي سهلة وبسيطة، خالية من التعقيد والتكلف الذي نشهده في عالم اليوم، وكيف كانت المتعة حقيقية، والضحكات صادقة نابعة من القلب، وعقب الحاج طه على كلامها قائلًا: "نعم، لقد رزقنا الله بالذرية الصالحة من الأولاد والأحفاد، ونحمد الله على جميل رزقه وعطاياه، ولكن أيام الشباب هي عمرٌ آخر لا يُعوض، فقد كانت لنا في هذه الأيام ذكريات عظيمة لا

يمكن مقارنتها أو مناظرتها بأي أيام أخرى، ولذلك فكلما جرى بنا الزمن اكتشفنا أن أيامنا الماضية كانت بحق كنزًا ثمينًا لا يُقدّر بثمن".

وهنا عقّبت الحاجة كريمة على كلامه قائلة: "صحيح، مع كل عودة إلى الوراء نكتشف كأننا كنا نحلم، عشنا حياة بسيطة وفقيرة في بادئ الأمر، ولم يكن فيها رحلات ولا أسفار كما هو الحال الآن، ولكن كانت كل المتع حقيقية، كما أشرت، والضحكات الصاخبة لا تفارق الوجوه، أما الآن بعد أن عاركنا الحياة وفهمناها نتحملها أكثر مما نعيشها، وفي آخر المطاف نتخلص منها أو تتخلص منا وتلفظنا بعد أن تنتهي صلاحيتنا فيها".

ثم أشارت إلى ابنها الأكبر علاء الذي كان يسبح على مقربة منها، وقالت: انظر إلى علاء الذي يسبح أمامك الآن، ما زلت أتذكره حين كان يسبح صغيرًا أمام عيني وهو في الثامنة من عمره، وما زلت أذكر المشهد وكأنه حدث بالأمس، وها هو الآن قد أصبح أبًا لفتاة في نفس عمره وقتها، تلهو معه في الماء متى حدث كل ذلك؟ لقد اكتشفنا فجأة أننا كبرنا حينما رأينا الصغار أمام أعيننا يكبرون، لقد هرمنا فجأة حينما رأينا الصغار يكبرون.

- ليت عجلة الزمان دارت دون أن تترك ندوبًا على ملامحنا، ودون أن تترك شروخًا في مصائرنا. ليت العمر، الذي يركض سريعًا، توقف للاستماع

لأصواتنا. نحن نتغذى على الذكريات الجميلة في الوقت الذي يجف فيه مداد العمر، وتضمحل فيه السنين، وتتلاشى البركة من أعمارنا.

-في الماضي كما تذكرين كانت الموارد قليلة وكان متوسط الدخل شحيحًا، ولكن كانت الحياة تسير دون مشقة تُذكر، أما اليوم، فالدخل أكبر، ولكن البركة منزوعة منه.

وما زال الحاج طه يدير هذا الحوار العائلي مع زوجته مستعيدًا مجد الأيام الغابرة، ومن حولهم يسبح الأبناء، ويلهو الصغار في الماء، وبينما هو يسترسل في الكلام مع زوجته، وعيناه تراقبان الأحفاد عن بُعد لمح حفيده الأصغر أحمد، ابن الست سنوات وقد انكفأ على وجهه في الماء، وهو يصارع الغرق دون أن ينتبه إليه أحد، فهبّ من مقعده بسرعة الصاروخ لنجدته، وقام بانتشاله من الماء في الوقت المناسب، وما إن تأكد من أن الصغير بخير ولم يُصب بأذى حتى احتضنه بقوة، وقبّل رأسه، ثم رفع كفَّيه لله شكرًا.

حدثت هذه الواقعة المشؤومة في اليوم الثالث من الرحلة، ولكن لم يكن لها أي تأثير في تغيير المسار أو التعجيل بالعودة المبكرة، بل استكملت الأسرة برنامج الرحلة بصورة طبيعية، مع تكثيف الملاحظة بصورة أكبر على الأطفال وعدم تركهم في الماء بمفردهم.

أما والد أحمد فكان ممتنًا لوالده الذي أنقذ ابنه الوحيد في الوقت المناسب من الغرق.

كانت الأيام المتبقية من الرحلة على قلتها حافلة بالمفاجآت، فبالإضافة إلى زيارة الشواطئ المختلفة كانت هناك حفلات وسهرات ترفيهية، وعروض مسرحية، وفقرات أخرى ممتعة، كان الأبناء والأحفاد يذهبون إلى هذه السهرات الترفيهية بصحبة زوجاتهم، بينما الحاج طه لم يخرج إلا مرات معدودة للتنزه والاستجمام، وفضّل أغلب الوقت الجلوس في شرفة شقته المُطلة على شاطئ البحر مباشرة برفقة زوجته يشاهد الشوارع والمارة من شرفة منزله أو الجلوس على المقهى القريب من المنزل.

ومرّت الأيام بسرعة وانتهت الرحلة، وحزم الجميع حقائبهم وعادوا جميعًا بسلامة الله إلى منزلهم بعد رحلة مصيف جمعت بين المتعة والإرهاق، وقد كست وجوههم فرحة ممزوجة بإرهاق السفر، كما نالت حرارة الشمس وملوحة البحر من لون بشرتهم التي غلب عليها الاحمرار، باستثناء الحاج طه وزوجته اللذين لم تتأثر ملامحهما من تأثير الرحلة، فهما لم يسبحا في البحر إلا مرة واحدة، وبخلاف ذلك كان كل منهما يكتفي بالجلوس على الشاطئ ومشاهدة البحر، والاستجمام في الهواء الطلق، ومشاهدة المصطافين، وقد عبّر طه عن سعادته بهذه الرحلة الصيفية التي استعاد فيها نشاطه المفقود وطاقته الإيجابية التي كانت في أسوأ مراحلها قبل الرحلة.

بعد العودة من المصيف حدثت المفاجأة حيث تغير مزاج طه وتغيرت قناعاته ونظرته للأمور، وبدأ يثور على بعض البديهيات القديمة والأشياء التقليدية التي كان يقبلها بدون نقاش من قبل، وبدأ يعيد

الحسابات والتأمل في كل شيء بطريقة أربكت الجميع، لقد أخذ يتأمل في منزله القديم بدهشة مفرطة وكأنه غريب عنه، ويتحسس الجدران العارية والأعمدة المتشققة وبعض الجوانب المتآكلة، معبّرًا لأول مرة عن مخاوفه من تصدع البيت عليهم في أي وقت بدون سابق إنذار، وبدأ السخط والحنق يزاحمان عقله، وتتأجج في داخله مشاعر الغضب دون مقدمات لذلك، وعبّر لزوجته عن خشيته من تصدع البيت فوق رؤوسهم نظرًا لسوء حالته وتهالكه، وتقادم الزمن عليه، مكررًا أن هذا البيت أصبح يمثل تهديدًا لحظيًا على الأسرة والأبناء والأحفاد، ولأول مرة يرى طه بيته بعيون جديدة، مع أن لا شيء تغير فيه من سنين، لقد رآه بيتًا متهالكًا، كئيبًا، يصيب ساكنيه بالذعر، ويمثل خطورة كبيرة على أرواح الجميع، لقد بدأ يفحص كل شيء تقريبًا في البيت، الدرج الذي تآكلت طبقته الرخامية، والحوائط البالية التي تصدعت قشرتها، والأسقف التي ظهر الحديد الصدئ من بعض جوانبها، كل هذه المشاهد التي أثارت استنكاره لم تكن جديدة، ولم تكن وليدة اللحظة، وإنما هي موجودة منذ سنين، ولكنها بدأت تثير انتباهه وامتعاضه الآن، وبدأ يتوقف عندها ويعترض عليها بعد عودته من المصيف، ولم يتوقف الأمر عند ذلك، بل سرى الخوف والفزع في أوصاله على أسرته وأحفاده؛ خشية إصابتهم بمكروه إذا انهارت أجزاء من المنزل في أية لحظة، هذه المشاعر التي ظهرت فجأة أصابت زوجته بالدهشة والشك، وعبرت عن استنكارها من حالة السخط والهلع التي أصبح عليها الزوج،

لقد ساورها القلق على الصحة العقلية لزوجها وعلى سلامته العقلية، وخشيت أن يكون قد أصابه مس من الجنون بسبب أفكاره الغريبة الصادمة التي بدأت تظهر فجأة، وبدأت تسأل نفسها عن الأسباب التي دفعت زوجها لإثارة مثل هذه الأمور الآن، مع أن وضع البيت هو هو، لم يتغير منذ سنين، وأن زوجها لم يتعامل بهذا الازدراء والخوف مع هذه المشاهد التي كان يعرفها ويشاهدها منذ وقت طويل، ولم ينتابه هذا الشعور من قبل، وحاولت بدورها أن تطمئنه بأن لا شيء يدعو للخوف، وأن دواعي قلقه ليست مبررة، وأن الصياح الذي يدور في رأسه أمر زائد عن الحد ولا يخلو من مبالغة، ومضت تقول: لقد أهملنا طويلًا مسألة ترميم البيت، وكان ينبغي علينا ألا ننتظر كل ذلك الوقت، صحيح أننا تأخرنا كثيرًا في ضرورة التوجه نحو صيانة وترميم البيت، ولكن الأمر ليس بهذا السوء الذي تصفه.

ولذلك دعته إلى السيطرة على انفعالاته وعدم إطلاق العنان لخوفه الذي يخيفهم معه، خاصة وأن المنزل يسكن فيه كل الأبناء والأحفاد، وأن من شأن حالة الهياج وإثارة الذعر أن تضغط على نفسية الجميع وتحملهم على المغادرة، وأن عليه أن يخفف من حدة نبرته ويتعامل مع الأمر بهدوء.
غير أنه لم يكترث لما تقول، ولم يعِر كلامها اهتمامًا، واتهمها بالسلبية وبرود الأعصاب، وعبّر عن تبرمه وامتعاضه من أنها برغم الصورة الماثلة أمامها لا تشاطره نفس الفزع.

غير أنها سألته عن الدافع المفاجئ الذي أجّج ثورته وحرّك مشاعره الساخطة على البيت وما فيه الآن؟ ولماذا تغيرت نظرته إلى البيت فجأة منذ عودته من المصيف؟ وما الذي يراه هو ولا نراه معه؟ فالمنزل هو هو، بجدرانه وحوائطه التي لم يطرأ عليها تغيير يُذكر منذ سنين، ومع ذلك لم يثر حنقه وغضبه بمثل ما نرى الآن، ثم إن هذا البيت قاوم كل تقلبات الزمن، قاوم الرياح العنيفة والأعاصير والنوات، وكل تقلبات الطقس والمناخ على مر السنين، ولم يهتز، وظل صامدًا متماسكًا يتحدى خوفنا، فلماذا انقلبت عليه الآن؟ ولماذا تريدنا أن نخاف منه؟

لذلك توسلت إليه بأن يغلق النقاش تمامًا في هذا الموضوع، ولا يتطرق إليه من جديد، حتى لا يثير مشاعر الخوف والهلع في نفوس الأطفال، وحتى لا يتسبب في هجرة الأبناء من البيت؛ خوفًا على أرواح الصغار، وحذرته من أن استمرار هذه الحالة في البيت من شأنها أن تولد عقدة مرضية وصدمات نفسية لدى الصغار نحن في غنى عنها، خاصة وأنهم يتأثرون بكلامه ويثقون في كل ما يقول، وطالبته بأن يفكر بطريقة عملية، وأن تكون الخطة القادمة والتفكير المستقبلي في صيانة المبنى، وذلك من خلال التوجه إلى إصلاحه وترميمه بشكل كامل وبطريقة شاملة حينما تسمح الظروف المادية بذلك، وقد وعدها بأنه سيبذل أقصى ما في وسعه من أجل السيطرة على انفعالاته، كما أخبرها بأنه لم يقصد إثارة مخاوف أحد، أو نشر جو من الفزع والرعب في البيت، أو خلق مشكلة

وافتعال أزمة كبرى من لا شيء، وأنه آثر الحوار معها في غيبة الجميع؛ لحرصه على أمن واستقرار العائلة وعدم النيل من السلام النفسي للأبناء، وفي نهاية الحوار دعا الله بأن يهدأ من روعه وخوفه، وأن يثبت الطمأنينة والهدوء في نفسه، وبالفعل توقف تمامًا عن إثارة هذا الموضوع لعدة شهور بعد أن ألهته ظروف العمل عن التفكير في هذا الأمر، واستراحت الزوجة من حالة التوتر والرعب التي سيطرت على البيت لفترة، وظنت أنه ربما نسي وتبخرت من رأسه المخاوف، وحمدت الله على ذلك؛ لأنها كانت متخوفة من خوفه وليس من متانة البيت، وتتوجس خيفة من أنه ربما نما إلى علمه شيء عن حالة البيت ويرفض البوح به، خاصة وأنه بدأ يميل إلى ارتداء الألوان السوداء والداكنة على غير عادته وعلي غير ما عرف عنه، ويبدو أن اختياره للألوان مرتبط بالحالة النفسية والمزاجية، وهو ما فهمته الأسرة بعد ذلك، ولكن ظل الوضع هادئًا حتى حلول العام الجديد، ومع اشتداد فصل الشتاء، وسرعة الرياح، وصوت الرعد والبرق في شهر (يناير) تجددت مخاوف الرجل من جديد.. فمع التحديات التي يحملها الشتاء والأمطار لمن يسكنون في منازل قديمة متهالكة، كانت هناك دوافع أخرى هذه المرة وراء إثارة طه لهذا الموضوع من جديد، هذه الدوافع تبدو مختلفة هذه المرة، وربما كانت نتيجة خوفه الزائد من المجهول، فقد استيقظ من نومه ذات يوم على حلم مفجع لم يستطع التكتم عليه أو إخفاؤه عن زوجته، هذا الحلم العابر الذي اختطف وقتًا قصيرًا من النوم أصابه بالصدمة والرعب،

وزلزل ثبات نفسه، وعمق الشكوك التي كانت تنتابه مؤخرًا، حيث رأى نفسه في المنام وهو يموت تحت أنقاض منزله في ليلة ممطرة بعد عاصفة شديدة أطاحت بالبيت واقتلعته من مكانه، لقد شاهد نفسه وقد استسلم لقدره وهو واقع تحت ركام منزله، بهذا الحلم الصادم أمسك طه بطرف الخيط، ووجد الجواب على أسباب خوفه وفزعه في الأيام والأشهر الماضية التي تلت عودته من المصيف.

لقد حكى لزوجته ما رأى، وهو في قمة تأثره وانفعاله، وأخبرها وهو يرتعد أن الأمر أكبر من أن يكون حلمًا، وأنه ربما يكون رسالة وإرهاصًا من رب العالمين بما هو آتٍ كي يعد نفسه للقادم، وأنه بعد هذا الحلم بات واثقًا تمامًا ومصدقًا لما رآه في نومه، وأن عليه أن يستعد بالعمل الصالح لمقابلة رب العالمين، وعاد يقول بأن الأمر ليس حلمًا قصيرًا في منامه، وإنما هو رؤية من لدن لطيف خبير، ولكن زوجته لم تكن مقتنعة تمامًا بشيء مما يقول، وكانت تشكك على الدوام في صدق روايته بأن ما يراه في نومه هي رؤية من الله، وكانت تخبره بأن الأمور اختلطت عليه، وأن الأمر لا يعدو أن يكون أكثر من حلم سيء رديء، وأنه لا يجب عليه أن يخلع على حلمه كرامات وصفات أخرى أكبر منه، ولكن يبدو أنه كان مقتنعًا بقوة بما يقول، فبعد أن قص الحلم على زوجته بمزيد من الشرح والتفصيل بدا جادًا وهو يسرد لها كل تفاصيل ما رآه في نومه، وكأنه يقص عليها رؤية أو وصية، رافضًا التراجع عن قناعته بأن ما يراه هو رؤية، فهو لا يقبل

نقاشًا أو تفسيرًا بديلًا من أحد لما يراه في نومه، وصار مقتنعًا تمامًا بما يقوله ولا يقبل نقاشًا أو تفسيرًا مختلفًا من أحد، غير أن زوجته على النقيض تمامًا منه، ولكنها وجدت نفسها مضطرة للتظاهر بتصديقه وهي لا تؤمن بما يقول، فقد كانت تنصت له باهتمام وذهول، ولكنها لم تأخذ حلمه على محمل الجد واليقين في أي وقت كما هو الحال بالنسبة له، وطالبته بحق الله أن يتوقف عن هذه السرديات أمام الأبناء والأحفاد، وألا يضيف أعباء أخرى إلى عقله، وأن لا يرهق ذهنه أكثر من ذلك بهذه التفاصيل، وأن يترك الأمر كله بيد الله، ومضت تقول لزوجها: «عهدي بك أنكَ رجل صالح، تؤدي الفرائض في أوقاتها، وثقتي بالله أنه لن يخذلك، ولن يميتك ميتة سوء، وسيدبر لك أجمل الأقدار»، ومضت تقول: «كلنا راحلون، هذه حقيقة لا تنتقص من أحد ولا تغضب أحد، وعلينا أن نتقبل النهايات كما رسمت لنا»، ثم قالت: «ما يجعلني أشكك في مصداقية حلمك هو الثغرات التي لم يتوقف عندها أحد في الحلم، فالحلم يتحدث عن طريقة موتك، وأنك ستموت تحت أنقاض البيت، ولا ترى في الحلم أكثر من ذلك، فماذا عن مصير باقي سكان البيت؟ لا موت ولا إصابات تلحق بهم، وليس لهم أي دور يذكر في الحلم، والسؤال: كيف ببيت ماهول مثل بيتنا ومليء بالأولاد والأحفاد أن ينقض عليك وحدك بأدواره الأربعة ولا يقتل أو يصيب أيًا من ساكنيه؟»، ثم سألته مازحة: «ماذا عن مصيرنا في حلمك، فأنتَ لم تذكر شيئًا عنا في الحلم مع أننا ننام سويًا على فراش واحد؟».

فأخبرها بأن هذا سبب دهشته وحيرته، «فأنا لم أشاهد في الحلم أحدًا غيري يموت، والجميع هرعوا إلى الخارج وتمكنوا من النجاة بأجسادهم بما فيهم أنتِ، وبقيت أنا الضحية المستسلمة كبش الفداء الوحيد للموت».

لقد طلبت منه أن يأذن لها بأن تقص تفاصيل الحلم على الأولاد، ولم يبدي امتناعًا، فهو بحاجة لمن يشاركه حمل هذا العبء الذي بات يقض مضجعه، لقد قصت الحاجة كريمة تفاصيل حلم زوجها المزعج على الأبناء الثلاثة لتستفتيهم في شأنه، ولتعرف انطباع كل منهم على هذا الحلم الذي أرعب أباهم، وطلبت منهم أن يلعبوا دورًا في تهدئة مخاوف الوالد المنزعج بشدة والذي بات مؤمنًا بأنه سيموت تحت جدران منزله، استمع الأبناء إلى تفاصيل الحلم من الأم وهم في ذهول مما يسمعونه، كان الحدث غريبًا ووجدوا صعوبة في تصديقه، ووعدوها بمساندة والدهم والوقوف معه في شدته حتى يتعافى تمامًا من تأثير هذا الحلم، وفي أول لقاء مع الوالد عمل الأبناء على تهدئة خواطره، وطمأنته على مصيره، وأخبروه بألا يكدر نفسه، وألا يعكر مزاجه، أو يغير طقوسه الإيمانية لمجرد حلم خبيث لا معنى له طاف برأسه، وقال الابن الأكبر علاء لوالده: «لا تشق على نفسك، واعلم أن لكل ليل صبح، وإن لكل مشكلة حل، فالحل سهل وبسيط وفي متناول أيدينا، إذا كانت حالة البيت والتشققات التي تظهر على بعض جدرانه هي ما يزعجك ويؤرق مضجعك، فعلينا من الغد أن تستدعي مهندسًا مدنيًا من الحي لتقييم حالة البيت وتقديم تقرير مفصل عن حالة الأساسات وسلامة

المبنى للسكن، وعلى ضوء توصيته نحدد ما يتوجب علينا فعله في الخطوة القادمة».

هذا المقترح لاقى استحسان الجميع، واتفق عليه الإخوة جميعًا، واعتبروه بمثابة الحلقة المفقودة في الموضوع كله، كما لاقت هذه الفكرة تجاوبًا ومباركة من الوالد، وبالفعل تم استدعاء مهندس من الحي لتقييم الحالة الإنشائية للمبنى، وبعد الفحص والمعاينة الشاملة لكافة أركان البيت وطوابقه أفاد المهندس في تقريره بأن البيت بحاجة إلى ترميم جزئي، وإن كان لا يمثل تهديدًا أو خطورة آنية على حياة وأرواح السكان، وبناءً عليه قرر الأبناء بالإجماع البدء في عمل ترميم لأساسات المنزل وحوائطه التي طالها التشقق؛ لتهدئة مخاوف والدهم، وإن كان الترميم قد اقتصر على بعض الأركان والزوايا التي وردت في التقرير الهندسي، ولم يشمل كل جوانب البيت التي لم يتطرق إليها تقرير مهندس الحي، وذلك لتقليل التكلفة، وتمت معالجة التشققات البارزة والشروخ الواضحة والتي كانت تثير قلق وانزعاج الوالد.

وقف الحاج طه يشاهد أعمال الترميم وقد هدأت خواطره، وبدا مرتاحًا لما يحدث من عملية إصلاح وصيانة البيت والتي تتم تحت سمعه وبصره، وتغير وجهه ومزاجه (مائة وثمانون) درجة، وأصبح يغلب على طبعه الهدوء، ولم يعد الخوف يملؤه ويستوطن عقله وقلبه من هاجس الموت تحت الأنقاض كما كان يصر على ذلك لانتقاء الأسباب والدوافع التي

كانت تدعوه للقلق، ظل مزاج الحاج طه هادئًا، وأصبح ينام نومًا هادئًا مطمئنًا بلا أحلام أو كوابيس مزعجة طيلة ثلاث أعوام، بعد أن كان يعاني الأرق، وبعد أيام وشهور عصيبة عاشها، أصبح ينشغل أكثر بعمله في مخبزه، ويحرص على الصلاة في المسجد وإمامة المصلين، واطمأن الأبناء إلى أن الكابوس الذي لازم والدهم لفترة قد تلاشى من ذاكرته بعد ترميم وصيانة البيت، ولكن المفاجأة الكبرى أن الوضع لم يكن كذلك، وإنما كان أشبه بفترات الهدوء الخادع التي تسبق العاصفة، حيث تجددت مخاوف طه بعد سنوات من الهدوء، على أثر حلم مزعج لاح برأسه من جديد، وأيقظه من نومه وجعله ينتفض مذعورًا من فراشه، لقد حلم من جديد بأنه لن يموت ميتة تقليدية، وإنما ستكون ميتة مذهلة لكل من يراها ويشاهدها، مما أبقاه في حالة ذعر وهلع لا ينقطع، وظل يستعيذ بالله من همزات الشياطين ومن هذا الكابوس السيئ، إلا أنه لم تتضح له في منامه تفاصيل أكثر عن الكيفية التي سيموت بها والمكان الذي سيشهد موته، وبقيت طريقة الموت التي ينتظره غامضة، وكان بحاجة لأن يشاهد في حلمه تفاصيل أكثر لتكتمل الصورة، وهو ما لم يحدث، وحال انقطاع الحلم دون معرفة المزيد من أسرار الموت، لقد دعاه هذا الحلم المبتور لاستدعاء الحلم القديم بأنه سيموت تحت أنقاض منزله، ولكنه سرعان ما توقف عن الربط بين الحلمين؛ لأن عقله الباطن يرفض بقوة الموت بهذه الطريقة البشعة المؤذية؛ لذلك ما إن امتص الصدمة وأفاق من تأثيرها، حتى قرر تجاهل هذا الحلم

واعتباره لم يحدث، وقرر أن يمارس حياته وطقوسه بالصورة المعتادة وبدون تغيير، وألا يخبر أحدًا من أهله وأصدقائه بهذا الحلم، وأن يلقيه وراء ظهره، وألا يحاول استدعاؤه والتفكير فيه من جديد، وأن يتحلى بالصّلابة والتماسك، وألا يجعل هذا الحلم يفقده توازنه أو تركيزه، وقرر أن يمارس حياته بإرادة قوية لا تتكسر، وعزيمة لا تلين، مؤمنًا بأن أقدار البشر كلها مكتوبة عند الله في كتاب مبين، وأنه لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، ولكن ما إن أدار طه ظهره لهذا الحلم السيئ لعدة أيام وظن أن كل منهما فقد أثر الآخر، وأن هذا الحلم قد ضل طريقه إلى منامه ولم يعد يباغته، حتى هاجمه الحلم من جديد، وأمسك بتلابيب عقله، ولم يفارقه في نومه على مدار أسبوع كامل، وكأنه سيف مسلط عليه، كان الحلم هذه المرة يحمل في جعبته كثيرًا من التفاصيل الجديدة الوافية عن الطريقة التي سيموت بها طه، ما جعله لا يسيطر على انفعاله مما شاهده في نومه؛ لذلك انتابه الفزع الشديد وبدا مرتعدًا مما تخبئه له الأيام، يخشى بقوة على نفسه وعلى حياته، وعلى ما تبقى له من عمر، فهو لا يريد أن يخرج من الحياة من هذا الباب وبهذه الطريقة، غير أنه فشل في إيجاد طريقة ناجحة للخلاص من هذا الحلم الذي اغتصب نومه وأرق مضجعه بلا انقطاع، وتساءل عن الدافع لمعاودة الحلم لمشاكسته ومطاردته من جديد؟

لقد قام الأبناء بترميم وصيانة البيت وظنوا أنهم بهذا العمل الشجاع قد قطعوا دابر الحلم وقطعوا عليه سكة الرجوع إلى الأبد، قد

قطعوا الطريق على هذا الحلم الشرير للأبد ووأدوه في مهده، ولكن هذا لم يحدث، وها هو الحلم يواصل غطرسته وغروره ويتسلل للرجل متى أراد، لقد جاء الحلم من جديد ليخبر طه بأنه سيموت تحت أنقاض بيته القديم، وأن ترميم البيت لن يقف حائلًا أمام كلمة القدر ولن يغير شيئًا مما هو مكتوب، ودعاه إلى عدم الاستهانة بالأمر، وعدم التماس الحماية في ترميم البيت وصيانته.

استمع طه إلى هذا الكلام المرعب وقد احتبست أنفاسه، وبخاصة أنه يعاني من ضيق في التنفس وتلجم عن السخط أو الاعتراض في حلمه، وظل يحملق في مصدر الصوت الذي يهاتفه في نومه ويستمع إلى باقي تفاصيل الحلم وكيف أنه سيكون الضحية الوحيدة التي سيواريها تراب منزله المهدم، وأن كل أبنائه وأحفاده وكل عائلته وجيرانه لن يصابوا بأي أذى أو سوء، وتكرر في الحلم أنه سيكون الضحية الوحيدة التي سينقض عليها المنزل ويواريها الثرى وتفقد الحياة تحت جدرانه، غير أن الحلم تضمن عبارات وإشارات لم يفهمها طه في حينها وظل أمرها ملتبسًا عليه، حيث رأى في منامه أنه سيموت ميتة الشامخين وهو مرفوع الرأس تحت الركام، وتعجب من فحوى هذا الحلم الغريب والمثير للدهشة، وظل يبحث عن تفسير لهذا الحلم غير المنطقي، ولكنه لم يصل إلى تفسير مقبول أو معقول يكفل لعقله الراحة، وقرر أن يلقى بالأحلام وراء ظهره مرة أخرى وألا يفكر طويلًا فيما إذا كانت الأحلام المتكررة تبعث برسالة يجب أن يأخذها على

محمل الجد بوصفها رؤية، أم أنها وليدة ضغط عصبي وخوف مبالغ فيه من المستقبل؟ فمن الأفضل والأسهل له والمفيد أيضًا ألا يفكر في شيء، وأن يتكيف مع هذه الأفكار التي تطارده في الأحلام من وقت لآخر، وأن يهمشها تمامًا، وألا يضعها في بؤرة شعوره؛ لأن من شأن تجاهل الأحلام وعدم الاكتراث بها أن يبطل مفعولها وأن يهزمها ويسقطها تمامًا من الذاكرة، وهذه كانت نصيحة عمر لوالده حيث عبر عن دهشته من والده لإثارته كل هذه الضجة المفتعلة بسبب حلم تكرر في نومه، وردد على سمع والده عبارة جميلة كان قد قرأها على إحدى الصفحات الإلكترونية للفيلسوف الإغريقي "أبيقور" يقول فيها:

"لماذا أخاف من الموت؟ فطالما أنا موجود فإن الموت لا وجود له، وعندما يكون الموت موجودًا فإني لست موجودًا، فلماذا أخاف من ذلك الذي لا وجود له عندما أكون موجودًا؟"

ودعا والده إلى التماسك في وجه الأوهام، فالموت قدر جميع الكائنات، وهو كأس دارٍ على الجميع بلا استثناء، فلا ميزة بين أن تموت على فراشك أو تحت أنقاض منزلك؛ لأن الموت في الحالتين واحد، ونحن بعد الموت لم يعد يعنينا أين وكيف متنا؟ ولكن ما يزعجنا هو رهبة اللحظة. بدأ الأب بعد كل ذلك متجاوبًا إلى حد كبير مع كلام الابن، ولكنه لا يستطيع رغم ذلك السيطرة على انفعالاته أو التوقف عن القلق.

الفصل الرابع

عاد الحلم يطل براسه من جديد في منام طه، حيث لم يمضِ شهر على آخر حلم له بالموت حتى استيقظ مفزوعًا من نومه من جديد على مشهد موته وهو مسجى على الأرض، وحجارة البيت بطوابقه الأربعة تتساقط فوق رأسه، وصوت الانقضاضات العنيفة التي تشبه تفجير القنابل ترن في أذنه، وغبار الأنقاض المتناثرة قد أخفى معالم المكان بأكمله، وأصوات البكاء والنحيب، وصوت الاستغاثات تُسمع بالقرب من الركام، الجميع يصرخ مستنجدًا بأولى الهمم والمروءة من أجل انتشاله من تحت الأنقاض، وقص على ابنه الأكبر علاء تفاصيل ما شاهد في حلمه، ومضى يقول وقد غلبه الوجوم: "المثير في الأمر أنني لم أكن أشعر بالخوف وأنا تحت الأنقاض مثلما أشعر به الآن، لقد رأيت موتًا جميلًا هادئًا وهذا لغز محير لم أجد جوابًا عليه ولا تفسيرًا له، كل من شهدوا انهيار البيت يستغيثون ويصرخون مطالبين بالدعم والمساندة، الجميع يطالب بالنجدة إلا أنا".

وشرع يسأل أولاده وقد غلبته حيرته: لماذا أنا وحدي الذي تحاصرني هذه الأحلام المتكررة دون غيري؟ لماذا تزورني هذه الأحلام كلما حاولت التصدي لها والفرار منها؟ وما دلالات ما أرى، وكيف يكون الموت جميلًا وهادئًا تحت الأنقاض؟ كيف يستقيم جمال الموت مع الأنقاض

والركام؟ ومضى يسأل مستنكرًا: لماذا تتربص بي هذه الأحلام في نومي كأنها تختبئ تحت فراشي وتنتظر أن يرف جفني؟ وما تفسير هذه الأحلام الغامضة؟ وهل هي رؤية صادقة؟ هل هي رسالة إلهية، أم أن الأمر كله محض تهيؤات وخرافة وأضغاث أحلام؟ وما معنى ما تردد في منامي من قبل أنني سأموت شامخًا مرفوع الرأس تحت الركام؟ وكيف يتسنى لعاقل أن يستوعب هذا الكلام؟ وهل يعقل أن يكون هناك رأس مرفوع تحت الركام؟ وكيف لهذه المتناقضات التي تجتمع في شخصي؟ كيف لهذه المعادلة الصعبة أن تتحقق في شخصه أن يموت بهذه الطريقة المأساوية وهو مرفوع الرأس؟ هذه الأسئلة وغيرها كانت تقتحم هدوءه وتفرض نفسها عليه دومًا دون أن يجد عليها جوابًا شافيًا، لقد كلفه هذا الحلم مزيدًا من الأرق والفكر ومراجعة الكتب القديمة ذات الورق الأصفر في شرح وتفسير الأحلام؛ عله يجد تحليلًا لهذه الظاهرة التي تفرض نفسها بقوة عليه، وهل هناك علاقة بين أحلام الموت والحالة النفسية والمزاجية؟ أم أن الحالة النفسية السيئة هي توابع لزلزال هذا الحلم؟ أم أنه مجرد حلم سخيف عابر قد يبدو منفّرًا من زاوية ومبشرًا من زاوية أخرى وأن عليه أن ينتظر أحلامًا أخرى أكثر وردية قد تأتيه في نومه إذا تحسنت الحالة النفسية والمزاجية؟ وهل يمكن أن ينطوي الحلم على دلالة حقيقية ويحمل رسالة مبكرة بما سيحدث في المستقبل القريب؟ هذه الأسئلة الصعبة وغيرها لم يجد عليها جوابًا حاسمًا، وما يزيد من حيرته هو كيف يقترن الموت تحت أنقاض منزله

بالمهابة، وكيف تقترن هذه الميتة الرهيبة بالشموخ، لذلك كان يتوقف طويلًا عند هذه الكلمات التي تجلّت له في حلمه محاولًا أن يعقلها أو يجد لها تأويلاً منطقيًا، ولكن دون جدوى، فهل من الممكن أن يكون هناك موت جميل تحت الأنقاض؟ وهل يعقل أن يكون هناك رأس مرفوع تحت الحطام والركام كما جاء في منامه إلا على سبيل الكناية أو المجاز؟ فمع الموت تسقط هيبة وكبرياء كل الأشياء، ولهذا بدا قلقًا مهمومًا من هذه الأحلام التي تتردد عليه بكثرة دون أن يفهمها أو يعرف كنهها، وهل تنطوي على خير أو شر؟ حتى إنه في أغلب الأحيان كان يتوجس خيفة من النوم، ويتردد في الذهاب إلى فراشه؛ حتى لا يسقط فريسة سهلة لمثل هذه الأحلام.

ظلت هذه الهواجس تطارده وقد أثرت على مزاجه وعلى سلوكه حيث بدأت شخصيته تتأثر سلبًا في بيته وفي عمله، وتهتز بعض الشيء، وغلب على سلوكه الاضطراب والتوتر، كما غلبت على ملامحه آثار الحزن والغضب مما يعانيه ولا يدرى له سببًا، وبعد أن كان يتحفظ في الحديث عن كل ما يستجد في نومه من أشياء وأحداث تؤرقه ويستحي من إظهار خوفه وضعفه لأبنائه خشية انتقاده، وبعد أن كان يتكتم على ذكر كثير من التفاصيل ويحظر على المقربين الاطلاع على نقاط ضعفه، صار يرفع الحظر ويضع قضيته وهمومه بين يد أبنائه وبدأ يسلط الضوء على مشاكله ويفضفض بأوجاعه وشواغله وكل ما يعتريه لزوجته وأبنائه، ولكن مواقف الأبناء كانت معروفة للوالد فهم يعيبون عليه استسلامه لهذه الأفكار والترهات،

كما رأى الابن الأكبر أن هناك إفراطًا من والده في خوفه، وأن الحلم لا يستحق كل هذه الضجة وهذا الرعب، كما نصحه عمر من جديد بأن لا يقسوا على نفسه، وأن يتقبل الأحلام بوصفها ظاهرة صحية ومحاولة تفريغ لما يدور في العقل الباطن من أحداث وتطلعات وهموم، وليس باعتبارها قدرًا واجب الحدوث أو حكمًا واجب النفاذ، فليس كل ما نرى في الحلم ويرهقنا رؤيته أو سماعه يحتاج أن يؤخذ على محمل الجد، وحث والده الرجل التقي المؤمن بقضاء الله وقدره أن يشفق على نفسه وألا يلتفت لكل ما يساوره في منامه، فإعمارنا وكل مقاليد أمورنا بيد الله وحده وليست بيد شياطين الأحلام الماردة، وذكر والده بأقواله القديمة وبالقواعد الإيمانية الرشيدة التي رباهم عليها: "ألم تكن أنتَ من علمتنا وربيتنا على ذلك؟ ألست أنتَ من حفظتنا منذ الصغر قوله -تعالى- في كتابه الكريم: {قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلا مَا كَتَبَ اللَّه لَنَا}، ثم أعاد تذكير والده بأن ليس كل ما نراه أو نسمعه في أحلامنا هو محض حقائق لا تقبل الشك، وأن الأحلام شيء والأقدار شيء آخر، وأن أقدار البشر لا تُكتب في الحلم، وأيًا ما كان القدر الذي كتب علينا حلوًا كان أو مرًا، وأيامًا كان الموت المكتوب علينا قاسيًا كان أو رحيمًا، فعلينا أن نتقبله بنفس راضية وقلب مطمئن، ليس معنى ذلك إقرارًا بالنهاية التي تطاردك في نومك أو ترجيحًا بأنها هي النهاية المحتومة التي لا مفر منها، ليس معنى ذلك على الإطلاق إقرارًا ضمنيًا بصحة ما جاء في الحلم، فقناعتي ما زالت راسخة بأن مخاوفك قد لا

يكون لها أي أساس من الصحة والمنطق، وكما أخبرتك فإن تاريخنا لا يُكتب في المنام وخريطة طريقنا لا يتم رسمها في الحلم، كما أن المستقبل وهو الشيء المهم الذي يؤرقك هو كما تعلم علمه عند ربي {مَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ}."

هذا الكلام الهادئ من جانب الابن الأوسط نزل على قلب الأب بردًا وسلامًا، ولا شك أن هذا الكلام الموثق المحسوب بدقة قد أثلج صدره الذي كان من قبل يئن تحت وطأة ضربات الخوف، وأراح عقله الذي غيبه القلق والتوتر عن تذكر هذه الحقائق الدينية الراسخة والتي أعاد الابن الأوسط تذكيره بها، فهدأت حدة مخاوفه وتراجع خوفه كثيرًا وأصبح شخصًا آخر بعد هذا الكلام الذي كان له تأثير السحر على نفسيته ومزاجه، لكن المخاوف والوساوس تأتي وتروح، وقد عادت لتنال منه بعد أسبوع من هذا الكلام، والسبب هذه المرة موقف غريب قد حدث له أيقظ أفكاره المسمومة من سباتها، وذلك عندما تلقى طه وزوجته دعوة من ابنة خاله التي تسكن في (حي بوالينو) القريب لحضور عقد قران ابنتها (مايسة) التي تخرجت حديثًا من كلية (الفنون الجميلة) على زميل لها في الجامعة.

كان عقد القران عائليًا وقد أقامته الأسرة في شقتهما الكائنة بالطابق الخامس في إحدى العمارات السكنية، فلبي طه الدعوة وذهب بصحبة زوجته، ولم يكن العقار يحتوي على مصعد كهربائي، فصعدا معًا على الدرج، وكان يحمل في يده هدايا للعروسين: علبتين جاتوه، وعلبتين

شيكولاتة، وما أن وصل طه إلى الطابق الرابع وهو يحمل معه هذه الهدايا حتى تعثرت قدمه وانزلقت على الدرجة الأخيرة من الطابق الرابع وسقط على بسطة السلم وسقطت معه العلب الأربعة على الدرج وتناثرت من حوله قطع الجاتوه والشيكولاتة حتى ملأت المكان، هذه الحادثة التي قد تبدو طبيعية لم يجعلها طه تمر مرور الكرام وإنما توقف عندها طويلاً، وصار يجمع كل خيوط مشهد الانزلاق والسقوط ويربطها بمشاهد الموت الصادمة التي تجلت له في أحلامه، ففي الحلم رأى طوابق البيت الأربعة تسقط عليه، واليوم تتعثر قدمه ويسقط على أعتاب الطابق الرابع، وتسقط معه علب الهدايا الأربعة وتتناثر على الأرض فيما يشبه تصدعات وانهيارات بيت آل للسقوط، هل هي مفارقة بين سقوط البيت بطوابقه الأربعة وسقوط علب الجاتوه الأربعة؟ وهل توجد قواسم مشتركة وعلاقة خفية بين ما ورد في الحلم وما يحدث في الواقع؟ لقد اختلطت عليه الأمور والتبست عليه المواقف ولم يعد يميز أو يفرق بين الحلم والحقيقة؛ لذلك بدا مذهولًا، مسلوب الإرادة، حائرًا، يتساءل أين الحلم وأين الحقيقة؟ وعاد يتذكر كلمات ابنه الذي يطالبه بالهدوء والصبر وأن لا يأخذ كل ما ورد في الحلم على محمل الجد، ولكن الوالد بات في حيرة من أمره لا يعرف أيهما يقبل وأيهما يرفض وإلى من ينحاز، إلى الرسائل القوية التي تأتيه في نومه والتي يعتبرها رسائل إلهية توثق النهاية الحتمية، أم إلى كلام ابنه الذي يشكك في

كل ذلك ولا يثق بكل ما تجود به الأحلام والرؤى من أسباب الشقاء والتعاسة؟

وعلى الرغم مما بدا عليه من صحوة إيمانية عالية في هذه الفترة وانتظام في صلاة الجماعة وقراءة القرآن، إلا أنه كان أشبه بالتائه الذي ضل الطريق، حائرًا بين الأضداد، بين إيمانه الراسخ بقضاء الله وقدره، وهاجس موته المرعب الذي يتراءى له على فترات متقطعة في حلمه.

ابنه الأصغر عماد حاول بدوره التخفيف عنه وأخبر والده أن الأمر بسيط وأن الحل يكمن في كلمة واحدة هي النسيان، فطالما أن الأمر كله بيد الله، وطالما أننا نتحرك وفق مشيئته، وأننا من دونه لا حول لنا ولا قوة في أنفسنا وفي أقدارنا ومصائرنا، فعلينا أن ندع الملك للمالك ولا ندع الخوف من المجهول يكبلنا ويقيدنا ويهدر طاقتنا، ويعطل مسيرتنا، ثم أردف قائلًا: أنا شخصيًا لا أكترث على الإطلاق لكل القصص والحكايات التي تأتيني في الحلم، ولا أتوقف كثيرًا عندها ولا أحفظ منها شيئًا، وقد أنسى معظمها وتغادر رأسي على الفور بمجرد الاستيقاظ، فالأحلام بالنسبة لي أشبه بالنزوة مسألة عابرة لا تعيش معنا ولا ينبغي لها أن تعيش معنا طويلًا خاصة إذا كانت مؤلمة ومدمرة حتى لا تفسد علينا سنين عمرنا، إذ من غير المعقول أن نجعل من أنفسنا رهائن لما يدور في كواليس الحلم حقيقة كان أم باطلًا، لا يعقل أن نرهن سعادتنا وآمالنا وضحكتنا في وجوه أولادنا وأحفادنا تحت تأثير حلم، قد يكون عديم المعنى والمغزى ولا

ينطوي على شيء ولا علاقة له بما تخطه الأقدار لنا، لا يعقل أن نحارب أنفسنا بأنفسنا في أقواتنا وأرزاقنا وأن نهمل تجارتنا بانتظار شكل الموت الذي سيأتي ولا نعرف موعده، لا يعقل أن نستسلم في الحياة وأن نسلم رقابنا لحلم، أكرر لا يعقل أن نموت قبل الموت وبعده وهذا ما تفعله بنفسك للآسف يا أبي، فأنا أتفق مع من يرون أن الأمور الغيبية علمها عند ربي وأنه لا ينبغي الخوض فيها أو التدخل فيها بالرأي سلبًا كان أم إيجابًا؛ لأن الله لم يحجب عنا الغيب إلا ليجنبنا التأثر والانفعال والموت البطيء، وبالتالي فلا معنى للخوف من الأقدار التي لم نحط بها علمًا.

ومضى يقول لوالده المتلهف بقوة على سماع المزيد: أنا على قناعة تامة بأن الحلم هو شاهد إنكار وليس شاهد إثبات، وأن ما يبوح به ويفصح عنه هو الوجه الآخر، وهو النقيض للحقيقة فقد نموت جميعًا وتنجو أنتَ إذا كانت حياتنا ستنتهي تحت أنقاض بيتنا، لذلك فمن غير الحكمة أن ندع النهايات التعيسة التي تصدرها الأحلام لحياتنا أن تشدنا إليها، وأن تلتهمنا وتقض مضاجعنا، وتحبط دورة حياتنا وحماسنا القديم للإقبال على الحياة.

وهنا تدخلت الحفيدة الكبرى شهد التي كانت تتابع كلام عمها واقتربت من جدها واستحلفته بأن يخفف عن نفسه وأن ينسى الأحلام ويخرجها تمامًا من رأسه ويلقيها في مكب النفايات، من أجلها؛ لأنها لا

يسعدها أن تراه بهذه الحالة من الهم والحزن، وأن يعود لسابق عهده يضحك ويمرح ويلعب معها كما كان يفعل دائمًا.

كان لكلام الابن ولمناشدة شهد لجدها عظيم الأثر في تحفيز الجد واستنهاض حماسه من جديد، لقد عاودته الطمأنينة بأن مصيره بيد الله وأن هذا المصير ليس الذي يراه في نومه، لذلك قرر أن يغير مساره ويحول بوصلة تفكيره للتفاؤل في المستقبل بدلًا من أن يظل معلقًا بعقارب الزمن التي تجره للخلف ولا تريد منه أن يحلم بغد أفضل، وقرر ألا يترك نفسه رهينة لحلم مؤرق بغيض قد يحدث أو لا يحدث.

وبالفعل هدأت خواطره وتغيرت حياته وعاد يُمارس عمله المعتاد في مخبزه بمزاج عالي، ويتحدث بأريحية مع جيرانه وزبائنه، ويذهب إلى الصلاة في أوقاتها، واستعاد حماسه وإقباله على الحياة وكأنه قد تحرر من زنزانة أفكاره المعتمة ومن أوهام الكهف التي حصر نفسه فيها، وقد استفاد من هذا التغيير والطفرة في مزاجه فكان يلاعب الأحفاد بالألعاب المختلفة، ويكتب لهم ويرسم معهم، هذا التغيير المفاجئ في مزاج طه كان له عظيم الأثر على معنويات الزوجة والأبناء والأحفاد، حيث ارتفعت معنوياتهم جميعًا بهذا التحسن المفاجئ في مزاجه، وظل الحال هادئًا وطه في أحسن حالاته لعدة أشهر لم يسمع أحد في البيت طوال هذه الفترة كلام عن الموت والأحلام والهواجس المرعبة؛ لذلك ابتهل أهل البيت جميعًا وسجدوا حمد وشكرًا لله على الطمأنينة التي باتت تخيم على البيت والسلام النفسي حتى

عاوده القلق من جديد دون مقدمات أو سابق إنذار، فذات يوم بينما حل الظلام وأسدل الليل سدوله وقف يراقب المكان من شرفة منزله، نظرة ملؤها التضرع والمناجاة وكأنه يرسل نداءات استغاثة لله، ثم توجه إلى داخل غرفته يتفحص ويتأمل في كل شيء حوله وكأنه يستكشف المكان لأول مرة يحملق في سقف الغرفة وفي الجدران من حوله كالغريب الذي يشاهد المكان لأول مرة ورأى أن دوره ورسالتـه بوصفه كبير عائلة يحتم عليه المحافظة على هدوئه وتماسكه، والتغلب على هواجسه وأفكاره بشتى الطرق، وألا يدع ثغرة ولو صغيرة لينفذ منها القلق والتوجس إلى حياته من جديد؛ لذلك توجه إلى المرحاض فتوضأ وصلّى، وما أن انتهى من الصلاة حتى أمسك بالمصحف وقرأ بصوت منخفض آيات بينات من سورة (المعارج)، ثم تبعها بقراءة أذكار المساء، واستلقى على سريره في اتجاه القبلة وخلد إلى النوم، غير أن الحلم المشئوم كان له بالمرصاد، ورغم كل هذه التحصينات التي لجأ إليها إلا أنه عاوده من جديد مما دفعه إلى الانتفاض من نومه والقفز من سريره كمن ينجو بنفسه من حريق شب في المكان، وظل يستغفر الله وهو يسأل نفسه: لماذا عاودني الحلم بعد طول انقطاع؟ هل هي وساوس وهمزات شياطين؟ وكيف تكون همزات شياطين وأنا على وضوئي وقد أديت ما عليَّ من فروض وقرأت القرآن والأذكار؟ كيف لم تحصنني تلاوة القرآن طوال الليل من هذه الأفكار التي تعبث برأسي إذا كانت أفكار شيطانية وليست رسالة إلهية؟

لقد رسخ فيه الحلم الذي جاءه في هذه الليلة المليئة بالروحانية قناعاته بأنه سيموت حقًا تحت أنقاض منزله، وأصبح واثقًا من هذه النهايات وأنه سيموت بهذه الكيفية التي تكررت في حلمه، إذ ما معنى أن تعاوده هذه الأفكار في نومه بعد ليلة طويلة من التهجد، والعبادة، والتحصن بالقرآن والأذكار ما لم تكن رسالة من الله؟ لقد بات مقتنعًا بعد هذه الحادثة بأن الأمر قد تجاوز مرحلة الحلم العابر الذي يأخذ معه الليل ويرحل، فالأحلام تتسلل في الظلام في غفلة من الوعي، ثم إذا استيقظنا من نومنا ننسى تفاصيلها ولا نتذكر منها إلا شذرات قليلة، أما بالنسبة لحالته فإن الأحلام الصادمة تؤكد حضورها باستمرار، وكلما حاول تجاهلها وجدها تدلف إلى رأسه دون استئذان.

كل الأحلام قصيرة العمر ولحظية ولا تمكث في الذهن أكثر من لحظات، حيث تتسلل إلى العقل في غفلة من الإدراك والوعي، حتى إذا استيقظ الوعي تبعثرت وتبخرت واختفى أثرها، حتى إذا حاولنا الإمساك بخيوطها الأولى فشلنا في كل مرة ولا نتمكن من فعل ذلك، إلا الأحلام السوداوية التي تسكن رأسي لا تريد أن تفارقني وتتشبث بي وكأنها ستغرق في غياهب النسيان وتضيع وتفقد نفسها من دوني، ناهيك عن حلم آخر روته شهد لجدها وهما في الطريق إلى المدرسة حيث أخبرته بأنه زارها في المنام وقبل رأسها ودعى لها بطول العمر والصحة والسعادة والنجاح وأخبرها بأنه مسافر إلى بلاد سعيدة، ثم اختفى، وبعد ذلك التفتت تبحث

عنه في كل الغرف، كانت كل الطرق مهدمة والجدران مائلة، ولكنها عثرت عليه أخيرًا ملفوفًا في كفن أبيض يظهر منه وجهه وعليه ابتسامة، كان لهذه الرواية التي قصتها شهد على مسامع جدها، وكذلك الحلم المخيف الذي حلم به بعد ليلة مليئة بالعبادة والروحانية، أبلغ الأثر على تعزيز قناعات طه الذي فقد الشغف وأصبح ينظر لنفسه رغم موفور صحته على أنه مشروع جاهز للموت في أي دقيقة، وأن عمره يشبه قنبلة موقوتة جاهزة للانفجار في أية لحظة، وأن إصرار الأحلام البشعة على مطاردته في نومه رغم تغيير أماكن نومه عشرات المرات هو تكليف إلهي لإخطاره بالنهايات ولوضعه أمام حقيقة ما ينتظره، وأن الحلم الذي يتردد على مخيلته باستمرار هو الوجه الآخر للحقيقة التي يحاول الجميع حجبها عنه، أو إنكارها، أو التخفيف من وقعها وأثرها، وبدا يروض نفسه على القناعة والرضا بما هو مكتوب في علم الغيب، مع عدم فقد الأمل في لطف قد يأتي من الله لا يقل عن لطف الله بنبيه إسماعيل -عليه السلام- الذي فداه من الذبح بكبش، بهذه الكلمات كان يخفف عن نفسه صعوبة ما يعتقده، كأن يقول ربما لو تحقق موته بهذه الصورة التي يراها في منامه يكون هذا لطفًا من الله، وهذا ما يفسر ظهور الموت جميلًا في منامه، فربما كان الموت تحت الأنقاض أخف في مشقته وألمه من الموت على فراش وثير مع مكابدة سكرات الموت التي تطيل عذابات الروح العالقة بين الموت والحياة، بهذه الكلمات كان يخفف على نفسه تبعات ما ينتظره، ولكن على الرغم من رضا

نفسه وتسليمه بما هو مكتوب عليه إلا أنه لم يتوقف عن مساءلة نفسه من وقت لآخر عن سر اختياره دون غيره لهذه المهمة الصعبة، ولماذا يدفن تحت التراب مرتين؟ وإذا كانت كل هذه القصة من الألف إلى الياء أوهام وأشباح وخيالات خاطئة أو حتى مقالب كوميدية، فلماذا لا يجد من يشاطره هذا الحلم ويحلم به مثله؟ وإذا افترضنا جدلًا كما يعتقد البعض أن ما يظهر في الحلم ليس رؤية، ولا رسالة، أو تكليف إلهي وإنما هي همزات شيطانية، وأن البيت ربما يكون مسكونًا بكائنات مؤذية من العالم السفلي هي التي تصدر له هذا الخوف باستمرار، إذا افترضنا صحة هذا الرأي، فبماذا نفسر حلم شهد الذي جاء ليعيد تأكيد المشهد؟ حتى الصغار الذين يحلمون يجدونني في الحلم وحدي، لا يرون من بين الموتى غيري، ولا يجدون بين الأطلال والركام سوي جثماني، كل حفلات الأحلام تُقام على شرفي، أحلام البراءة لا ترى غيري، وأحلام الكبار لا ترى غيري، فلماذا يستأثر بي الحلم وحدي؟ هكذا يقول، ولماذا لا يأتي لأي من الساكنين في البيت معي؟ كل هذه الأسئلة التي تدور في ذهنه كانت أسئلة مشروعة، ولكن زاد عليها ظهور أشياء ومواقف وأحداث في الواقع بدأت تعزز لديه فرضياته القديمة، وتعزز فرضية الموت الذي ينتظره تحت الركام، مواقف وأحداث يتعرض لها ويجد نفسه فيها تمثل إسقاطًا صريحًا على حلمه المشئوم، وحوادث قد تبدو لأول مرة، وهل هي طبيعية وأمر عادي يتكرر حدوثه؟ ولكنها تنطوي من وجهة نظره على دلالة لا تقبل الشك على

الموت الذي ينتظره بين حجارة منزله، مثل تلك الحادثة الفريدة التي تعرض لها أثناء عمله في مخبزه والتي تركت في نفسه أعمق الأثر، ذلك حينما حضرت إلى مخبزه إحدى الزبائن من أبناء الطبقة الراقية وطلبت منه عمل تورتة عيد ميلاد من أربعة طوابق احتفالًا وابتهاجًا بعيد ميلاد طفلها الوحيد الذي أتم عامه الرابع، وأوصته بأن يصمم لها تورتة فاخرة تليق بابنها الوحيد، ووعدها طه أن يصمم لها التورتة بنفسه في محاولة منه لاستعادة ثقته بنفسه، لذلك قرر التفرغ تمامًا من أول الصباح لتصميم هذه التورتة بمزيد من التركيز لإخراجها في أحسن صورة ترضي زبونته التي توشك على الحضور، وفي أول المساء وبينما هو يقترب من الانتهاء من إعداد التورتة ووضع اللمسات النهائية عليها بعد ساعات طويلة من العمل، حدثت المفاجأة التي لم يكن يتوقعها، حيث تساقطت التورتة بطوابقها الأربعة على سترته وغطت جسده، وكأنها أنقاض بيت آل للسقوط، هذا المشهد الصادم للتورتة وهي تتهاوى وتسقط على جسده دون سابق إنذار وتغطي معطفه، وكأنها تحاكي حلمه البغيض، هذه الحادثة العفوية التي قد تبدو طبيعية اعتبرها هو إسقاطًا على حلمه، وربط على الفور بين سقوط طوابق التورتة الأربعة وبين تصدع طوابق البيت الأربعة في مشهد حلمه، وربط هذه الحادثة الفردية بمحتوى ومضمون الحلم، مما جعله يتوقف طويلًا أمام هذا المشهد الذي لا يمكن اعتباره محض صدفة، وإنما رسالة لا تخلو من دلالة وعمق، إذ لا يمكن غض الطرف أبدًا عن هذه الحادثة، لا يمكن

تجاهل سقوط الطوابق الأربعة من التورتة وليس طابقًا واحدًا، ها هو الآن يشعر بأن حلمه يتكرر، ولكن هذه المرة في وضح النهار وفي صحوه وفي محل عمله، وهذا تطور يبعث على الرهبة، لقد وجد الحلم لنفسه متنفسًا في الواقع عوضًا عن الحلم الذي استهلكه، وبدا ينعكس على أحداث ومواقف حقيقية من حياته، كل شيء في الواقع يردد ما سمعه وراه في حلمه، فكل الأشياء والأحداث تصدح بهذه الحقيقة.

لقد حاول إقناع زوجته وأولاده بأنه لا مفر من موته تحت ركام بيته، وأن عليهم أن يتقبلوا هذه الحقيقة بنفس راضية مثلما يتقبلها هو، وأن يستعدوا لها وأن يكيفوا النفس عليها، ورأى أنه يسير بالفعل نحو هذه النهاية.

سعت زوجته لإقناعه بألا يربط قدره ومستقبله ومصيره بأحلام وحوادث عرضية، وأخبرته بأن هذا الربط خاطئ، وأن التورتة سقطت نتيجة خطأ في المكونات وربما لفقدان التوازن بين الأعمدة، وأنه من السخف إلقاء مسؤولية سقوط التورتة على عاتق الأحلام، فهذه فرضيات تبتعد عن الحقيقة ولا يقبلها عقل، وتطيل في معاناته، ربما تشابهت مع الحلم البائس الكئيب في أشياء كثيرة، في السقوط وفي عدد الطوابق، ولكن لا يمكن اعتبار سقوطها عملية إسقاط مقصودة على حلمه، أو أنها تمت بترتيب مسبق لإثارة مخاوفه وتسميم حياته وتحويل الحلم إلى سيف مسلط عليه.

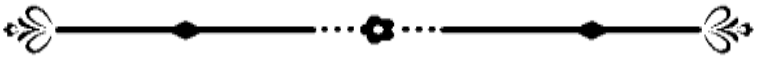

لقد أصبح طه بعد هذه الحادثة أكثر عنادًا وتشددًا في قناعاته، ولم تفلح المحاولات الدؤوبة والمضنية من جانب أسرته وأقربائه أن تزحزحه عن هذه القناعات، فهو لم يعد يتقبل من أحد أن يحدثه عن فكرة المصادفة في كل حدث أو موقف يحدث له، بينما أبناؤه لم يوافقوه الرأي في طريقته وأسلوبه في التعامل مع المواقف والحوادث العرضية التي تحدث له، ويرفضون إقحامها في شواغله الخاصة، فلا أحد من أفراد عائلته يؤيده في طريقة تعامله مع أحلامه، ولا في تأويله الشخصي وتفسيره الخاص لهذه الأحلام، ولا في إقحام مواقفه الحياتية في حلمه، لا أحد يؤمن بهذه النهايات التي بات الأب يؤمن بها ويصدع رؤوسهم بها مع كل موقف صعب يعصف به.

****

الفصل الخامس

كان قرار الأم والأبناء بعد أن ساءت الحالة النفسية لوالدهم وتدهورت على أثر الخيالات المرعبة والأفكار السوداوية التي تلازمه، هو الاتجاه لعرضه على طبيب متخصص في الأمراض النفسية والعصبية ليشخص طبيعة هذه الحالة ويقدم وصفة علاجية فعالة للخروج من هذه الأزمة التي أخذت تشتد عليه، والحيلولة دون تطورها بما يؤثر على الحالة العقلية له، وتقديم العلاج الذي يكفل له الهدوء والعودة إلى حالته الطبيعية التي كان عليها قبل هذه الأزمة.

فكرة عرض الوالد على طبيب نفسي اقترحها في أول الأمر ابنه الأوسط عمر وزوجته، ووافق عليها باقي الإخوة بعد أن اتسع نطاق الخوف المرضي عند والدهم، فكل من في البيت يؤلمهم رؤية كبير البيت والعائلة على هذه الحالة من الرعب والهياج؛ لذلك كان قرار الموافقة على ضرورة عرضه على طبيب كبير، ولكن المشكلة تكمن في كيفية إقناع الوالد بذلك الأمر دون جرح مشاعره أو النيل من كبريائه وكرامته، فالأب كان دومًا موضع تقدير وتوقير من أبنائه وله رهبة ومهابة في نفوس الجميع، حتى بعد ما ساءت حالته النفسية ظلت مكانته على حالها لم تهتز؛ لذلك كانت المعضلة الكبرى هي في إيصال الفكرة إليه ومن الذي سيبادر بهذه المهمة، الجميع

يشعر برهبة من مواجهته بمرضه، والكل حذر من الوقوف أمامه ليشكك في قواه العقلية، وظل التردد هو سيد الموقف إلى أن تجرأ الابن الأكبر عماد وقرر أن يفاتح والده ويصارحه بهذا الأمر، قال عماد لوالده: إنه يؤلمه ويحز في نفسه أن يراه يصارع أشباحًا وأرواحًا تظهر له في نومه وتصيبه بالهم والكدر، وإنه فكر في اتباع السبل الصحية والعلاجية والتوجه معه لطبيب كبير؛ لتشخيص الحالة قبل أن تسوء وتتفاقم ويصبح طلب الشفاء أمرًا متعسرًا.

بدأ الوالد في أول أمره ممتعضًا وغير متحمس لفكرة عرضه على طبيب نفسي، واستفسر من عماد عن جدوى عرضه على طبيب نفسي، وما الذي يمكن أن يقدمه الطبيب لتغيير القدر؟ إذا كان سيموت تحت ركام منزله، فهل هناك من علاج أو دواء يمنع حدوث ذلك؟ وهل يستطيع الطبيب أن يحبط الأحلام ويجعلها لا تأتي في النوم؟

كان الأب يطرح أسئلة فلسفية ساخرة على ابنه ليخبره بأنه لا علاج شافٍ لدى الأطباء بالنسبة لحالته، وإن كان في قرارة نفسه ينشد العلاج والراحة لنفسه بعدما أنهكته أطياف نومه المستبدة واستنزفت قواه، غير أنه لا يعول على الطب كثيرًا في مسألة الشفاء.

فطالبه عماد بأن يأخذ بالأسباب وألا يضع العراقيل ويصعب المهمة على نفسه وعلى الأطباء، ربما كان لدى الطب رأي آخر وقراءة أخرى لما يشعر به، وربما كان هناك دواء مهدئ يخفف عنه وطأة ما يعانيه ويجعله

ينعم بالراحة في نومه، واستطرد قائلًا: «مهمتنا هي أن نطرق كل الأبواب ولا نصادر على أي حل لمشكلتنا».

ومضى يقول في محاولة منه لطمأنه والده: «هذا ليس معناه أننا نتهمك بشيء أو نصفك بشيء أبدًا، ولكن هي محاولة للأخذ بالأسباب، فلا يمكن إيجاد تفسير علمي صحيح لحل الألغاز الكثيرة التي تظهر في حلمك وتؤثر في مزاجك دون اللجوء إلى الطب النفسي».

كان الأب في أول أمره يرفض فكرة إقحام الطب في أزمته، ولكنه وافق بسهولة ودون إلحاح؛ لأنه هو الآخر بحاجة لأن يفهم ما يدور في ذهنه وما يحدث له في منامه، وتوجه بالفعل برفقة أبنائه الثلاثة إلى طبيب نفسي يدعى (عاصم كامل) في عيادته التي لا تبعد عن المنزل كثيرًا، ونقل الأبناء للطبيب تفاصيل حالة الوالد في سرية ودون أن يشعر الوالد بشيء منذ بداية الأزمة، منذ أول حلم له بالموت تحت الأنقاض الذي قلب حياته مرورًا بالحوادث الفرعية التي وجد فيها الوالد إسقاطًا على حلمه، وتكرار نفس الحلم في منامه على مراحل متقاربة حتى أصبح يصدقه ويعتبره رسالة إلهية، والأغرب من ذلك أنه يربط كل ما يحدث له من مواقف وأحداث يومية بهذا الحلم المشؤوم.

وهنا التفت الطبيب إلى طه وسأله بنبرة هادئة: هل تفهم في تفسير الأحلام؟ هل لديك علم بابن سيرين في تفسير الأحلام؟

فأجاب طه بالنفي.

فعاد الطبيب يسأله على طريقة سقراط في التهكم والتوليد: إذن لماذا تعتقد في صحة تفسيرك وتأويلك لأحلامك؟

فرد طه بأن تكرار نفس الحلم ومعاودته شبه اليومية كان دليلًا على أن ثمة حدث جلل ينتظره، وأن الأمر ربما يكون أكبر من حلم في المنام.

حاول الطبيب أن يسبر في أغوار نفس طه، مطبقًا نظرية التحليل النفسي للمشاعر عليه في محاولة منه لفهم الآليات التي تعمل بها مشاعر هذا الرجل، وماذا يحب وماذا يكره؟ والأشياء والمواقف التي يستمتع بتذكرها، والمواقف التي يفر منها ويرغب في نسيانها، ثم أخبر مريضه بأن معاودة الحلم وتكراره في المنام لا تعني وجود حدث جلل أو أن حدثًا خطيرًا سيقع كما يعتقد، ربما يكون معاوده الحلم راجع إلى تدنى الحالة النفسية والمزاجية واضطراب في وظائف العقل؛ بسبب وضع الحلم في بؤرة اهتمامك وتركيز جل تفكيرك في المشاهد المرعبة في حلمك، وهذا ربما يكون سببًا لمعاودة الحلم في منامك، وعلى ذلك فليست عودة نفس الحلم في منامنا إقرار وتصديق بما يرد في أحلامنا، وإنما حالة الصراع الداخلي الذي يدور في عقلك وشحن نفسك بخوف مزمن من الغد، هو ما ينسج لك أحلامك بهذه الصورة التي ترعبك.

وهنا ابتهج طه واستفسر من الطبيب هل معنى ذلك أنني لن أموت تحت أنقاض منزلي كما تخبرني الأحلام؟

فأجابه الطبيب بأن لا أحد يملك المعرفة والعلم؛ لكي يخمن لمخلوق شكل الطريقة التي سيموت بها ولا في أي أرض يموت، مصداقًا لقوله -تعالى-: {وَمَا تَدرِي نَفس مَّاذَا تَكسِبُ غَدا وَمَا تَدرِي نَفسُ بِأَيِّ أَرض تَمُوتُ} صدق الله العظيم، ولذلك فأنا أرى أن خوفك من الغد لا معنى له وليس له أي أساس علمي، ومع ذلك فإن علاج الحالة السلوكية المهتزة لديك لن يكون بالأمر السهل.

ثم أراد الطبيب أن يعرف من طه إذا كان يفرط في تناول المنبهات مثل القهوة، فأجاب بأنه بالفعل يداوم على شرب القهوة بانتظام، فأخبره الطبيب بأن الإفراط في تناول المنبهات من شأنه أن يلعب دورًا سلبيًا، حيث تؤجج حالة التوتر والأرق، واقترح عليه شرطين للسير في طريق التعافي والتخلص من القلق:

أولاً: تعديل النظام الغذائي لتحسين النوم.

ثانيًا: الابتعاد فترة شهرين على الأقل عن البيت للحيلولة دون تذكر الأماكن المرتبطة بحلمه، فالابتعاد عن مسرح الأحداث، أقصد المسرح الذي تدور فيه أحداث الحلم؛ لأن من شأن ذلك أن يساعد في التعافي السريع.

أما عن تعديل النظام الغذائي قال الطبيب إنه شخصيًا يؤمن بوجود علاقة وارتباط وثيق بين الصحة النفسية والنظام الغذائي، ولذلك نصحه بقائمة من الأغذية يمكن تناولها تساعد في تحسين حالة النوم

والاسترخاء، مثل: (الكرز) وهو من الأطعمة المثالية لتعزيز النوم؛ لاحتوائه على (المغنيسيوم والتريبتوفان)، وهما عنصران يساعدان على استرخاء العضلات وتهدئة الجسم ما يعزز النوم العميق، كما طالبه بتناول عسل النحل؛ لأنه يساعد في تحفيز (الميلاتونين) وهو الهرمون المسؤول عن تنظيم النوم، كما أنه يساعد على تهدئة الدماغ، ويجعل من تناول مشروب دافئ مع الليمون خيارًا مثاليًا، كما دعاه إلى تناول شريحة أو شريحتين من الديك الرومي؛ فهو من الأطعمة الغنية بالأحماض الأمينية التي تساعد في تعزيز النوم العميق، كما أن اللوز يساعد في تنظيم مستويات السكر في الدم أثناء النوم ما يساهم في استرخاء العقل والجسم وتحويلهما من حالة اليقظة إلى الراحة، وإلى جانب تحسين النظام الغذائي دعاه الطبيب إلى الحرص على الذهاب إلى الفراش والاستيقاظ في الوقت نفسه، والاستراحة لمدة ساعة على الأقل قبل النوم، مثل: أخذ حمام دافئ، أو قراءة كتاب، وأن يحرص على جعل غرفة نومه مظلمة وهادئة باستخدام الستائر أو سدادات الأذن، وتجنب الكافيين والمنبهات بجميع أنواعها قبل ست ساعات من النوم، وتجنب الوجبات الكبيرة قبل النوم، وأخبره بأن من شأن الالتزام بهذه التوصيات والتعليمات أن تساعد في التعافي السريع.

أما عن الابتعاد عن البيت فهو أمر أصبح ضروريًا لمساعدتنا في خطوات العلاج، فنحن بحاجة لقطع الطريق على الكوابيس والمنغصات والأفكار السوداء التي تنشط في أحلامك والتي تسبب لك الأرق، وهذا لن

يكون متاحًا دون الابتعاد عن البيت لفترة من الوقت، سيكون الأمر صعبًا عليك وعلى الأسرة أنا أفهم ذلك، ولكنها خطوة مفيدة وفي الطريق الصحيح لتهدئة خواطرك، وتحريرك من الطاقة السلبية التي لازمتك طويلًا، أعلم أن مغادرة المنزل عمل صعب على نفس كل إنسان وخاصة في مثل هذه الظروف، ولكن هذه المغادرة لن تطول، فهي حركة مؤقتة حتى تحسين مزاجك النفسي وإلى أن تتخلص تمامًا من أي خواطر تجلب عليك الهم والحزن.

بدأ طه منزعجًا من هذا الاقتراح، ولكن الطبيب أخبره بأن أي علاج في أوله صعب، وأن وصفة ترك البيت قاسية على نفسه وهو يعلم ذلك، ولكن أي علاج لن يكون فعالًا ومؤثرًا، ولن يحقق الهدف المنشود منه وأنت موجود في بيتك، ودعاه لأن يفكر فيما يقول ويحسم أمره وما إذا كان مستعدًا لقبول وتنفيذ هذا المقترح، وكرر الطبيب تأكيده على ضرورة الاستجابة السريعة لترك البيت والانتقال إلى مكان بديل من أجل تطبيق برنامج علاج ينهى هذه القصة ويخرج طه من الدوامة القاسية التي يدور فيها.

فكر طه طويلًا في كلام الطبيب وأومأ برأسه بالموافقة على ترك بيته لأول مرة في حياته، دون أن يحدد وجهته القادمة، وسرعان ما برقت إلى عقله فكرة الذهاب إلى أخته الكبرى (حنان) الأرملة التي تعيش في (حي بوالينو) القريب، وسرعان ما اتصل بالطبيب على وجه السرعة وأبلغه

باستعداده للانتقال على وجه السرعة للعيش مع شقيقته وترك منزله إذا كانت هذه الوصفة السحرية يمكن أن تضع نهاية للأفكار السوداوية المحبطة التي أغلقت في وجهه منافذ الأمل، وإذا كان في ذلك حل يساعد في علاجه من الحالة الصعبة التي يكابدها، وبالفعل انتقل الحاج طه لمنزل أخته في صباح اليوم التالي وقد استقبلته بترحاب شديد وساعدته بطريقتها الخاصة في السيطرة على انفعالاته، ومكث لديها قرابة الخمسة أشهر وقد أخبرها ذات يوم أنه يتمنى لنفسه أن يموت مستلقيًا على فراشه، وهو على وضوء الصلاة، ووجهه متجهًا إلى القبلة، وقد دعت له بطولة العمر وأن يرزقه الله بعد العمر عمر آخر وفي نهاية العمر يرزقه حسن الخاتمة، وقد استطاعت خلال فترة مكوثه في بيتها مساعدته على الاحتفاظ بمزاج متقد غير عابس، وعلى الالتزام بالنظام الغذائي الذي أوصاه به الطبيب، وكان حريصًا خلال إقامته هناك أن يطبق كل ما سمعه من الطبيب حرفيًا؛ ولذلك اتسمت إقامته في بيت أخته بالهدوء والتعافي وخلت أيامه من الكوابيس والاضطرابات والأرق، وتحسن مزاجه، وهجر الألوان القاتمة، وعاد من جديد لارتداء جلبابه الأبيض، وتمكن من إخراج الطاقة السلبية من جسمه وعقله، وأصبح يشعر بالثقة والهدوء ما انعكس على كل تصرفاته وسلوكياته، وعاد لحماسه القديم في العمل وفي حسن التصرف في المواقف، وأصبح يستمتع بالسلام النفسي والشعور بالقوة الداخلية، كما أصبح تفكيره يميل إلى الإيجابية والتفاؤل، ونجح في هذه الفترة في تحقيق

التوازن النفسي والتصالح من الذات ومع المواقف الصعبة العصيبة التي مر بها، وأصبح أكثر قدرة على الاستمتاع باللحظات السعيدة وهو ما افتقده طوال الفترة الماضية، فلا أحلام الآن، ولا خوف من الغد، ولا حديث من قريب أو بعيد في مثل هذه الأمور التي تشبه حقل ألغام ملتهب، حيث كانت أخته تتعمد إلهائه بأمور كثيرة بعد عودته من عمله كأن يصلح لها جهاز معطل، أو شباك مكسور، ولا تترك له رفاهية الوقت لينحرف بتفكيره في أشياء تجلب عليه الأسى حتى إنه مع مرور الأيام نسى تمامًا الأحلام الفظيعة التي كانت تراوده.

كان الأبناء والأحفاد يترددون عليه في بيت شقيقته للجلوس معه والاطمئنان عليه بعد عودته من عمله، وكذلك فعلت زوجته الحاجة كريمة وزوجات الأبناء الثلاثة وقد تحسن الجو العائلي كثيرًا، ولم تعد الأجواء مشحونة بالصراع النفسي والخوف من المجهول، بل أصبح الجميع متفائلون بطي هذه الصفحة واستقرار الحالة الذهنية والمزاجية للحاج طه بمواصلة العلاج.

ومع اقتراب عودة طه إلى منزله بعد تماثله للشفاء والتخلص من هاجس النوم، أبدى الجميع معارضتهم للتسرع في إعادة طه إلى بيته مما يؤدي إلى حدوث انتكاسة صحية تطيح بكل ما قد تحقق على مدار الأشهر الماضية، لذلك رأوا ضرورة تركه لدى شقيقته مدة أطول إلى أن يتعافى تمامًا.

لقد أصبح بيت الحاجة حنان هو ملتقى أفراد العائلة الآن، فكان الجميع يحضر إلى بيتها؛ لمتابعة وزيارة طه والالتفاف حوله من الأبناء والأحفاد، وكان يسعد وينطلق من الفرحة بالتفاف الأبناء والأحفاد حوله، الجميع يأتون لزيارته يحملون الأطعمة الشهية والفاكهة، ويقضون معه أسعد الأوقات في لمسة عائلية دافئة، بينما هو يمارس هوايته باللعب مع أحفاده بألعابهم المختلفة، وقد حدث ذات يوم موقف مثير يشبه الزلزال أثناء اندماجه باللعب مع أحفاده، أطاح بهدوئه وثباته النفسي وأعاده من جديد إلى المربع الأول من الخوف والقلق، وجعله يصطدم من جديد بالأفكار المزعجة عن حلمه المشؤوم والتي اعتقد الجميع أنها ذهبت إلى غير رجعة، حيث كان الجد عادة ما يلعب مع أحفاده أثناء ترددهم عليه ألعاب ذكاء ومهارات، كان يطلب منهم ترتيب لعبة البازل وتوحيد الألوان، وكانت هاجر تتفوق في هذه اللعبة على أحمد وشهد في كل مرة، وفي مرات أخرى يطرح أسئلة وفوازير وألغاز ويطلب منهم الإجابة عليها؛ لتنمية الحس الديني والثقافي لديهم، ويطرح مكافأة (خمسون) جنيهًا لصاحب الإجابة الصحيحة، في بعض المرات تكون المكافأة من نصيب أحمد، وفي مرات أخرى تكون من نصيب شهد أو هاجر، وكان الجد يتعمد أن تذهب المكافأة المادية لكل منهم بالتساوي؛ لتحفيزهم وتشجيعهم على الاستذكار ولرفع الروح المعنوية لهم جميعًا، وحتى لا يترك أحدًا منهم محبطًا أو مظلومًا، أو يعاني من إحساس بالدونية والقصور والفشل العلمي والمعرفي.

إلى أن جاءت اللحظة الموعودة التي قلبت كيان الجد حين طلبت شهد من جدها أن يشكل لها بيتًا بمكعبات الليجو ذات الحجم الكبير حيث اعتادت الطفلة استخدام هذه المكعبات في تكوين أثاث منزلي، سرير، دولاب أو بعض الأشكال البسيطة التي تلامس ذهنها، ولكنها كلما حاولت تصميم بيت كبير تفشل في كل مرة، لذلك طلبت من الجد أن يصمم لها بيتًا بالمكعبات يشبه بيت العائلة ذي الطوابق الأربعة المليء بالدفء، ونزولًا على رغبتها حاول الجد أن يختبر قدراته في تكوين أشكال بمكعبات الليجو ليرضى حفيدته، وقد وقف الجميع يراقب الجد وهو يصمم بيت العائلة بالمكعبات، كان العمل على بساطته شاقًا على الجد الذي لم يسبق له استخدام هذه المكعبات منذ وقت طويل في تصميم بيت متعدد الطوابق، ولكن ها هو يخوض التجربة إرضاءً للأحفاد، وبينما هو يقوم بتركيب وتثبيت الأركان، ووضع الزوايا والفواصل، وتركيب الطوابق فوق بعضها بمهارة واحترافية شديدة، كان يصف للأحفاد كل طابق: "هذا طابق بابا علاء، وهذا طابق بابا عمر، وهذا طابق بابا عماد، وهذا طابق جدو"، وفجأة بدا على وجهه الإرهاق الشديد وتصبب عرقًا وكأنه يحمل أحجارًا حقيقية، ولكنه واصل العمل ولم يتوقف، وما إن وصل إلى الطابق الرابع والأخير من المبنى حتى سقط البيت بأكمله فوق راحتيه، وهنا اكتسى وجهه بالهم والحسرة على جهده الضائع.

أخذت الأفكار السوداوية تنشط في رأسه وتتقاذفه من جديد، لقد أيقظت هذه الحادثة البسيطة الأفكار والخلايا النائمة في رأسه وحفزتها على النهوض والانطلاق من جديد بعد أشهر من التقوقع والانكماش والسبات العميق، ووجدت كل الأفكار الملعونة فرصة سانحة للعودة ونسج خيوطها وترتيب أوراقها والسيطرة من جديد على أفكاره، وإغراقه في حالة من الكآبة والارتباك والرعب، وبدا شريط من الأحداث والمواقف يتحرك في رأسه بقوة، وعادت صورة الحلم وانقاض البيت المهدم بطوابقه الأربعة تبعث الفكرة، وعاد معها شكل التورتة ذات الطوابق الأربعة وهي تسقط منه وتغطي سترته، وانتعشت المأساة واكتملت بسقوط بيت الليجو بطوابقه الأربعة، كل هذه المشاهد عادت دفعة واحدة لتضغط على أعصابه وتعيده إلى المربع الأول من القلق بعد أن اعتقد، واعتقد معه الآخرون بأنه قد نجا، وعادت الطاقة السلبية تتقمصه وتنشط بقوة في أعماقه، كما أصبح بعد هذه الحادثة محاصرًا في تجربة مشاعر سلبية كالغضب، والإحباط، والتشاؤم، والرعب من الغد، وتحول مزاجه فجأة من النقيض إلى نقيضه.

معلوم أن كل إنسان منا يحمل في نفسه طاقة قد تكون إيجابية، وقد تكون سلبية، وقد يمزج بين الطاقتين السلبية والإيجابية حسب المواقف والأحداث التي يتعرض لها، لكن طه بعد حادثة مكعبات الليجو فقد توازنه وتخلى عن التفاؤل الذي ميز حياته في هذه المرحلة، وأصبح أسيرًا

لطاقته السلبية وما يرتبط بها من سوداوية وأوجاع وهموم، وقد حاولت شقيقته انتشاله من هذه الحالة، وإقناعه بأن الأمر يتعلق بلعبة أطفال، وأنها لا يمكنها على الإطلاق أن تستوعب كيف يمكن لسقوط مجسم من لعبة مكعبات ليجو أن يحدث فيه كل هذا الهلع والخوف؟ وكيف لهذه الحادثة الطبيعية البسيطة التي تحدث كل دقيقة مع كل الأطفال والكبار أن يكون لها هذا التأثير المدمر على شخصيته وحياته؟

وكان رده: "لا تحاولوا إخراج كل شيء من سياقه، انظروا إلى الحادثة داخل السياق وحاولوا أن تفكوا شفرة الرسالة التي تحملها لشخصي".

لم يقتنع طه بكل المحاولات التي قامت بها شقيقته وأبناؤه للتخفيف من واقعه سقوط بيت الليجو، كان الأمر بالنسبة له أشبه بزرع عبوة ناسفة بلعبة أطفال بغرض استهدافه شخصيًا، وبدأت حالته النفسية والمزاجية تسوء، وحاولت أخته تهدئته بشتى السبل، ولكن دون جدوى ودون استجابة منه، فأعدت له مشروبًا دافئًا ووضعت فيه قرصًا مهدئًا للحيلولة دون تفاقم حالته لحين عرضه على الطبيب.

استسلم طه لنوم عميق، ولكنه مسكون بالأحلام المرعبة، فقد حلم مرة أخرى بأن البيت يهدم فوق رأسه وأنه وجد نفسه جثة هامدة مستلقية تحت الركام، فاستيقظ من نومه مفزوعًا وهو يصرخ من الفاجعة بطريقة غير معتادة لم تألفها شقيقته الحاجة حنان التي استيقظت هي الأخرى على صوت صراخه وهي تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، بادرت

شقيقته إلى الاتصال بأبنائه؛ طلبًا للمساعدة بعد أن تمادى في حالة الهياج ولم تستطع السيطرة عليه، وذلك من أجل نقله إلى مستشفى تخصصي أو إلى طبيبه المعالج، وعلى الفور حضر الأبناء الثلاثة، ولكنهم فضلوا اصطحابه معهم إلى البيت الذي شهد أحلامه المزعجة لمداواته بالتي كانت هي الداء بمعنى وضعه في مواجهة البيت الذي تصور له الأحلام كل مساء أنه سينقض عليه ليتأكد من زيف أفكاره وأن المشكلة لا تكمن في البيت، وبالفعل مكث في بيته (أربعة) أشهر شهدت أحلامًا متقطعة وعلى مراحل متباعدة، وإن كان خياله لم يعرف الراحة ونومه لم ينله الصفاء، ولذلك ذهب بمحض إرادته إلى طبيبه النفسي والذي قرر وضعه تحت الملاحظة لمدة (عشر)ة أيام حتى تماثله للشفاء.

وأشار على أسرته بأن متابعة سير الحالة تقتضي إبقاءه قيد الحجز، وفي اليوم الأول من إقامته بالمستشفى ومع حلول الظلام بدأت تظهر عليه اضطرابات نوم واضحة، حيث غاص عقله في التفكير السلبي قبل النوم، وظل يسرح بخياله في أحداث ومواقف مرت عليه مسترجعًا محطات قاتمة من حياته، وقد أدى ذلك إلى تفاقم الأرق الناجم عن حالة الإجهاد النفسي التي يمر بها، وأدى انخراطه في التفكير السلبي أثناء دخوله إلى النوم إلى تكالب الأفكار والمواقف المخيفة التي حلم بها والتي عاشها في الحقيقة، حيث رأى في منامه من جديد جسده وهو يختفي ويغوص تحت حطام منزله، وكذلك شاهد الحادثة التي مرت به حينما تعثرت قدمه في الطابق

الرابع وسقطت من بين يديه علب الهدايا الأربعة، كما رأى في نفس الوقت التورتة ذات الطوابق الأربعة وهي تتصدع وتسقط فوق جسده وتكسو ملابسه الرمادية بلون الثلج، كما شاهد بيت مكعبات الليجو وهو يتهاوى ويسقط، وشاهد في الحلم امتزاج بين سقوط أحجار منزله، ومكعبات الليجو وهم يتساقطون بنفس الطريقة، واستمع إلى صوت حفيدته شهد وهي تخبره بأنها رأته في المنام وهو يرتدي كفنًا أبيض تحت أنقاض منزلهم، ورأى نفسه وقد هلك واختفى تمامًا تحت الأنقاض في خضم تلك الأحداث، وسرعان ما أفاق من نومه مذعورًا.

وهنا أدرك الطبيب أن طه يعاني من اضطرابات النوم المزمنة وأنه واقع تحت تأثير كوابيس وأحلام مزعجة، فطلب منه أن يتناول قرص مهدئ، وأخبره بضرورة تغيير رؤيته للمستقبل؛ حتى لا تستفحل الحالة أكثر من ذلك، وأن عليه أن يتخلص من نظرته السلبية تجاه الحياة والمستقبل، وأن يتبنى نظرة أكثر إيجابية وألا يفقد حماسه وإقباله على الحياة، مشددًا على أن تعافيه مرهون بتغيير فلسفته وقناعاته عن مصيره ومستقبله، وأنه من قبيل الجنون أن يحكم المرء على نفسه بالموت حيًا من جراء حلم.

وهنا قال طه للطبيب: لقد عقدت العزم والنية منذ اليوم الأول للحلم الذي أرقني وقض مضجعي على تجاهله بشتى السبل وعدم تذكره أو الحديث عنه، وشرعت في نسيانه كباقي الأحلام التي تطوف برؤوسنا عند

المنام، ولكن الحلم أبى إلا أن يلازمني في فراشي كرفيق حياة، فلم أشأ الغوص بكلتا قدماي في وحل هذا الحلم اللعين وسعيت لانتشال نفسي من براثنه والخلاص من بين فكاكه التي شلت حركتي، حتى حدثت واقعة التورتة ذات الطوابق الأربعة والتي انهارت فوق سترتي، هذه الحادثة التي تشبه في فصولها الحلم البغيض أعادتني إلى المربع الأول من القلق والأرق، وكانت بالنسبة لي بمثابة برهان واقعي على مصداقية الحلم الذي حلمته.

فأجاب الطبيب بأن هذه الحادثة عرضية وتحدث باستمرار لأشخاص كثيرين ولا أحد يتوقف عندها أو يربطها بشيء آخر مربك سواء كان حلمًا أو حقيقة، هل تفهم لماذا؟ لأن هذه الحادثة التي قمت بتصخيمها وإظهارها وكأنها عقاب قدري مريع هي محض صدفة.

وهنا أبدى طه دهشته من كلمة "صدفة" وسأل الطبيب: وهل تعثر قدمي وانزلاقها في الطابق الرابع أثناء التوجه لعقد القران كان صدفة؟ وهل سقوط علب الهدايا الأربعة كان صدفة؟ وهل حادثة مكعبات الليجو هي أيضًا صدفة؟

لقد تعجب الطبيب من كثرة الحوادث المتعاقبة التي مر بها طه وبدأ مضطرًا أن يلتمس له العذر في كل ما يعانيه وفي منطقية موقفه، غير أن دوره ورسالته تملي عليه أن يفرمل لديه كل الدوافع السلبية التي تعزز قناعاته؛ ولذلك أخبره بأن كل ذلك يندرج ضمن الصدف.

فاحتد طه الذي لم يروقه هذا الكلام على الطبيب، وقال: إن موازين الصدفة قد تجاوزت حدود المعقول في حياتي، هناك حلم مرعب يلازمني بأنني سأموت تحت أنقاض منزلي ذو الطوابق الأربعة، وهناك تورتة من أربعة طوابق صنعتها بيدي لإحدى زبائني وانهارت على سترتي بعد أن وصلت إلى طابقها الرابع، وهناك بيت المكعبات الذي صممته لأحفادي وما إن بلغ طابقه الرابع حتى تساقط وانهار على الطاولة، هل كل ذلك حدث معي بمحض الصدفة؟ أقول هل كل ذلك صدفة وليس جرس إنذار؟ تعثر قدمي وانزلاقها على الدرج عند الدرجة الرابعة هل هو الآخر صدفة؟ ولماذا تعثرت عند الدرجة الرابعة وليس عند أي درجة أخرى؟ وحلم شهد حفيدتي التي رأتني أرتدي كفنًا أبيض تحت أنقاض منزلي هل هو الآخر صدفة؟ إذا كذبت ونافقت كل المواقف والحوادث، فهل يكذب خيال الطفلة البريئة؟ هل يمكن اعتبار سلسلة الأحداث المتماثلة والمتباعدة والمجتمعة على شيء واحد صدفة؟

وجد الطبيب نفسه في مأزق، وشعر بالضعف والحرج وبأن حججه واهية ولا تصمد أمام سلسلة الحوادث والمواقف المتناسقة التي مرت بمريضه، ولكنه رأى أن عليه واجبًا مهنيًا ضمن أخلاقيات العيادة وهو أن لا يتوقف كثيرًا عند السرديات التي يشرحها طه، وأن يتهرب منها قدر المستطاع؛ لأنه لا يملك إجابة شافية للرد عليه، فقال: كل ما مررت به لا يمكن اعتباره حجة دامغة، أو دليل علمي على شكل النهاية التي رسمها

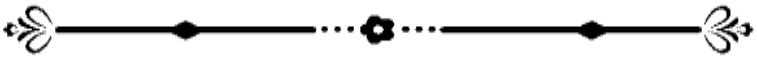

الله لك، فلولا خوفك ورعبك من الحلم الذي تردد في منامك لما توقفت عند هذه الحوادث العرضية التي تحدث لك؛ لذلك أنصحك بأن لا تضخم الوهم ولا توفر له الذرائع؛ ليعيش ويقوى وينتعش في رأسك كأنه حقيقة، إن شفاءك وتعافيك يتوقف عليك ومرهون بتغيير قناعاتك، وتضييق الخناق على الأفكار والأوهام التي ترتع في ذهنك وتقودك إلى طريق اللاعودة، فرص التعافي كبيرة، ولكنها تحتاج إلى تصفير رأسك من رواسب النوم وبذل جهد مضاعف لتخطي هذه المرحلة وعدم العودة إليها من جديد.

****

الفصل السادس

عاد طه إلى منزله متخبطًا بين ما يشعر به في عالمه الداخلي، وبين ما يحمله الواقع الخارجي من صور وأحداث مغايرة، تنتابه الحيرة بين ما يعتقده في أحلامه وبين تفسيرات طبيبه الخاص والمقربين منه لهذه الظاهرة، وبات واثقًا بأن الكرة صارت في ملعبه وأن عليه أن يبذل جهدًا مضاعفًا لإسقاط كل ذرائع الأحلام وعدم تركها ترتع وتمرح في عقله دون رادع، وتذكر كلام طبيبه بأن تجاوز هذه الأزمة مرهون بتغيير رؤيته للحياة، وتبني نظرية أكثر إيجابية وألا يفقد حماسه وإقباله على حب الحياة، وعلى تأكيد الطبيب بأن تعافيه مرهون بتغيير فلسفته وقناعته عن مصيره ومستقبله؛ لذلك فكر طويلًا في البحث عن مخرج من كابوس الموت، وقرر أن يأخذ زمام المبادرة في التصدي لكل الأفكار السوداوية التي تجد متنفسًا لها في أحلامه، وأن يلجأ إلى الحلول البسيطة بقراءة القرآن كل يوم قبل الخلود إلى النوم، لقد فكر أول الأمر بعد عودته إلى بيته بترك البيت والانتقال لفترة قصيرة إلى مكان آخر، عمارة سكينة جديدة يقيم فيها لعدة أيام؛ لإفشال خطط الكوابيس التي تهاجمه في نومه وسحب الذرائع منها، ولكنه سرعان ما تخلى عن هذه الفكرة بعد معارضة أسرته وأولاده، وبدأ يتعاطى بطريقة إيجابية عاقلة مع كوابيسه، فإذا كان قدره هو أن يموت تحت

أنقاض منزله، فإن الانتقال إلى مكان آخر لن يغير الأقدار ولن يعطل حدوثها، فإذا كان مقدرًا له حقًا أن يموت هذه الميتة، فسوف يموتها في أي مكان آخر، وتحت أي أنقاض أخرى، وأن تبديل المكان لن يبدل المكتوب ولن يغيره، فالاختباء والهروب لن يمنع المكتوب.

بهذه الكلمات الموجزة والمعبرة والتي تختصر كل شيء كان يصبر نفسه ولأول مرة يواجه نفسه بأحلامه مواجهة حاسمة، ويسأل نفسه: ما الذي يخيفني من الأحلام؟ وما الذي يزعجني من الموت وأنا رجل مؤمن مطيع لله، ومؤدي لفرائضه وشعائره؟ ما الذي يؤلمني ويقض مضجعي من الموت ما دمت سأموت في آخر المطاف؟ فلماذا نصعب الأمر على أنفسنا؟ فالموت تحت أنقاض بيت، أو تحت عجلات حافلة، أو على فراش وثير هو في آخر المطاف موت واحد، وإن تعددت الصور والأشكال فلا يوجد موت رحيم وآخر غير رحيم؛ لذلك قرر الصمود في وجه كل مخاوفه وعدم المبالاة بشيء، فالألم في الحياة لا مفر منه، أما المعاناة فاختيارية، وأنه لن يختار لنفسه المعاناة بعد الآن؛ لذلك رأيناه يهتف لنفسه قائلًا: لا يجب أن يقشعر جسدك وترتعد أطرافك ومفاصلك من فكرة الموت، امضِ في الطريق إليه ولا تبالِ، ولأول مرة يعترف بأن أبنائه كانوا على صواب طوال الوقت في نصائحهم له، وقرر أن يستجيب لوصاياهم وألا يجعل عقله رهينة للأرق بعد اليوم، وأن يدع مصيره بين أيادي خالقه عملًا بقوله -تعالى-: {قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا} صدق الله العظيم.

وأنه يتعين علينا عدم إفساح المجال لليأس والإحباط ليتجاوز خطوطنا الحمراء، ولا يجب ترك الخوف يعشش فوق رؤوسنا، وإنما علينا أن نحيا بشجاعة فوق هذه الأرض دون الخوف من أقدار لا نعلمها أو مصائر ليست بيدنا، ولا يملك أحد الحجة والدليل عليها، فلا أحد لديه خاصية(GPS) لتحديد مكان موته، تصديقًا لقوله -تعالى-: {وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ} صدق الله العظيم.

هذه الآيات القرآنية الدامغة كانت كافية وشافية لتهدئة خواطره، وشد عزيمته لمواجهة الأفكار السوداوية المزعجة وإلقائها وراء ظهره، ولأول مرة نراه يعترف بأن هاجس موته تحت أنقاض منزله هي فكرة فيها من الزيف والحقيقة، وأنها ليست صادقة صدقًا مطلقًا، وليست مخيفة على الإطلاق، فالحلم الذي طالما راوده في نومه يظهر سعادة وسرور بهذا الموت، وبالتالي فهو أمر لا يخيف ولا يجب أن يخيف، كما أن الله لم يعطِ علم الغيب لمخلوق، وبالتالي فإن أي استنتاجات لن تكون سوى ترهات وأضغاث أحلام قد تصيب وقد تخطئ، وحتى لو كان الله قد اختصني بعلمه ونقل لي في الحلم تصورًا مبكرًا للطريقة التي سأموت بها، فلا اعتراض على أمر الله ويجب أن نتقبل أقدارنا بقناعة ورضا، وألا نسأل الله رد القضاء وإنما نسأله اللطف فيه.

لم يمضِ أسبوع واحد على عودة طه إلى بيته إلا واتصلت عليه شقيقته المتخوفة عليه بشدة، ودعته إلى المجيء إليها والمكوث عندها فترة أخرى حتى تعافيه من هذه الكبوة، فأخبرها بأن مزاجه أصبح على ما يرام، ومعنوياته صارت مرتفعة، وأنه لأول مرة منذ شهور ينام في فراشه نومًا هادئًا بدون أحلام أو كوابيس، ولكنها رجته أن يحضر إليها لتباشره عن قرب، ووعدها بالعودة إليها وقضاء عدة أيام أخرى عندها، وبالفعل توجه إلى منزل شقيقته بناءً على رغبتها رغم تحسن حالته المزاجية بشكل كبير، وأقام في بيتها عدة أيام، ولكن زيارته هذه المرة لم تكن هروبًا من الأحلام التي كانت تطارده؛ لأن هذه الخيالات والأوهام لم تعد تأتيه في نومه، وإنما جاء ليستكمل رحلة التعافي وليستمد القوة والصلابة من شقيقته التي كانت ملهمة له طوال فترة إقامته معها، وأكثر الناس دراية بنقاط قوته وضعفه، قال لها: أنا هنا الآن لأبشرك لأول مرة بأنني أسير في الطريق الصحيح، وأشم رائحة التعافي، والتخلص من كل تبعات وارتدادات الأحلام السوداوية التي كدرت صفو حياتي، فلن أنسى فضل هذا البيت عليَّ، ففيه تماثلت للشفاء ووقفت على قدمي وعاودت نشاطي، وعلى هذه الوسادة عرفت النوم بلا أرق، في هذا البيت أمضيت أيامًا أقرب ما تكون إلى عزل صحي ونمت نومًا هادئًا عميقًا، وكأن كل الوساوس والشياطين قد صفدت عني في هذه الأيام، واستجاب عقلي وقلبي للشفاء والتخلص من سموم الأفكار المخيفة التي كانت تحلق فوق رأسي وتنشط في منامي، والآن

لم يعد يخيفني المستقبل ولم تعد ترهبني الأحلام أو الموت، فالموت مسألة محسومة ومفروغ منها، ونحن للآسف ضيعنا وقتًا طويلًا في الخوف منه دون داعٍ، وأنا شخصيًا قمت بتضخيم الفواجع، وكأنني وحدي الذي سيترك الإنسانية تخلد في الأرض ويرحل، أهدرت الكثير من هدوء نفسي وراحة قلبي جراء أحلام قد تصيب وتخطئ، ولم أنتبه أو أتوقف عند الجانب المضيء من الحلم حيث كان الموت يظهر لي في كل مرة في صورة بهية ويبدو جميلًا وهادئًا رغم بشاعة الصورة، فما الذي أغضبني في ذلك؟

لقد ابتهجت الحاجة حنان بالتطورات الجديدة في حالة شقيقها، وسجدت لله شكرًا على تعافيه من سيطرة فكره الموت عليه، وأثنت على إرادته القوية وعزيمته الراسخة التي انتصرت على الأفكار السوداوية القاتمة، وقالت وهي تبكي من الفرح: كانت أيام عصيبة وصعبة على نفوسنا جميعًا، وكانت اختبارًا قاسيًا على صبرنا وقوة إيماننا، والحمد لله أننا تجاوزناها إلى غير رجعة، ونسأل الله ألا يعيدها من جديد، ثم توجهت إلى الصلاة شكرًا لله ودعت لطه بالتثبيت وأن يرزقه الله حسن الثواب على ما تحمله من خواطر قاتلة تفتك بالعقل ولولا رحمة من الله لأوصلته إلى حد الجنون.

لقد أمضى طه في بيت أخته (ثلاثة) أيام اتسمت نفسيته فيها بالراحة والهدوء، وأمضاها ما بين البيت وعمله في المخبز، وقد لاحظ الجميع عليه التحسن الواضح في المزاج والمعنويات المرتفعة والإقبال على

العمل والاهتمام بكل كبيرة وصغيرة، وهي ظاهرة كان قد افتقدها في فترة تعبه، وما إن انتهت الأيام الثلاثة حتى ودع طه شقيقته وشكرها على ضيافتها وكرم وفادتها، وعاد إلى بيته، وهناك أخبر زوجته وأبنائه بأن الله مَنَّ عليه بالسكينة والراحة، وأن تجربته مع الحلم المروع ذهبت إلى غير رجعة، وأن الخوف من الأحلام اختفى من قاموس حياته، وأنه شُفي من الأفكار المسيطرة التي كانت تحاصره في صحوه ومنامه وفتح صفحة جديدة مع الحياة، ثم عانق أحفاده وشكرهم على دعائهم له طيلة فترة تعبه، وقال لهم: لقد استجاب الله لدعائكم؛ لأنكم ملائكة أبرياء أخلصتم في الدعاء، ولذلك من الله عليَّ بالشفاء.

ابتهجت الأسرة بهذا التحسن وامتلأ البيت بالفرح والأهازيج كأنه يوم عرس، وقامت زوجات الأبناء الثلاثة بتوزيع أطباق أرز باللبن على الجيران والأقرباء؛ تعبيرًا عن فرحة عودة رب البيت إلى حالته الطبيعية، ومضت الأيام والشهور هادئة طبيعية، وبعد أقل من عام بدأ الحاج طه يشكو من آلام حادة ووخز في قلبه وضيق في التنفس مما اقتضى توجهه بصحبة ابنه الأكبر إلى المستشفى القريب، وبعد فحوصات وتحاليل شاملة تبين أنه يعاني من مضاعفات شديدة وضعف في عضلات القلب، وقرر الأطباء نقله على وجه السرعة إلى العناية المركزة ووضعه على جهاز تنفس.
حيث كان يعاني من صعوبة في التنفس، وظل تحت المتابعة الطبية حتى وقت متأخر من الليل إلى أن استعاد فجأة بعضًا من عافيته وأصبح قادرًا

على الوقوف على قدميه من جديد، وفي الصباح غادر المستشفى بعدما تجاوز مرحلة الخطر، وإن كانت مضاعفات الأزمة القلبية لم تختفِ تمامًا، ولكنه قرر استكمال علاجه بالمنزل بناءً على رغبته مع اتباع إرشادات وتوصيات الطبيب المعالج.

وبالفعل عاد طه إلى المنزل وكان يتلقى علاجه بانتظام لمدة (شهر ونصف) استقرت خلالها حالته، وإن لم تكن صحته على ما يرام لمعاودة عمله، غير أنه لم يعتد على البقاء طويلًا في البيت، ولكن حالته الصحية لم تكن على ما يرام لمباشرة عمله، وإن كان قد تخلص تمامًا من كل الكوابيس والأحلام ولم تعد هذه الأفكار تلوح في ذهنه، ولم تعد تضره الأقدار أيًا كانت ولا الموت بأية طريقة وفي أي أرض، وأصبحت نفسه مملوءة بسلام نفسي، وتعلقت روحه أكثر وأكثر بطاعة الله والمواظبة على الصلاة والدعاء، ولم تعد نفسه تنشغل بهواجس ومواجع صارت من الماضي، غير أن أزمته القلبية واعتلال صحته كان هو التحدي الأكبر بالنسبة له، وما زال يمتلك إرادة قوية للتعافي، ولكن المرض كان أقوى منه، فبدى وجهه شاحبًا وصوته مبحوحًا يقاوم التعب، وحالته إجهاض وإرهاق أنهكت جسده وأسلمته للفراش، حتى إن وجهه كان يتصبب عرقًا من أقل حركة يقوم بها، ولكنه ما يزال يُعافر بكل ما أوتي من قوة للنهوض من فراشه والعودة إلى حياته الطبيعية، فكان يتحامل على مرضه وينتفض من سريره ويذهب إلى الوضوء مستندًا على ذراع ابنه، ثم التوجه إلى الصلاة وهو جالس

على مقعده، وقد لاحظ ابنه الأصغر علاء أن أظافر والده طويلة وتحتاج إلى قص وتهذيب، فاحضر مقصًا صغيرًا وقام بتقليمها وتهذيبها بحرص شديد بعد أن طالت فجأة حتى لا تؤذي أصابعه، وما إن انتهى الابن من تقليم أظافر الأيدي والأقدام للوالد حتى ألقى الأب برأسه بعيدًا على وسادته وهو يبتسم في وجه الحضور ابتسامة خفيفة وكأنه يسخر من كل أحلامه السابقة التي نغصت عليه سنين عمره، وهو يرى ساعته تقترب وأنه يودع الحياة بهدوء ودون ضجيج وهدم وانقاض، وكانت آخر نظراته على سقف الغرفة والحوائط التي رآها سليمة لم تنقض، فرفع إصبعه بالشهادة وحمد الله، ثم أسلم الروح وفارق الحياة.

لقد صعدت روحه إلى بارئها في هدوء ويسر وهو على وضوء الصلاة وظل وجهه ضاحكًا مستبشرًا بعد الموت، والأبناء والأحفاد يحيطون به، ربما كان يسخر من صميم قلبه من خوفه القديم، ومن هذه النهاية الكريمة لحياته التي انتهى إليها ولم يكن يتوقعها والتي خالفت كل أحلامه، ربما فهم الآن لماذا كان موته هادئًا وجميلًا في الحلم؟ رغم أنه لم يلتفت إلى هذه الحقيقة، ولعله الآن وجد الجواب الشافي على حلم شهد التي رأته في منامها وهو ملفوف في كفن أبيض ووجهه مبتسمًا مطمئنًا، فلو قدر له أن يبقى حيًا لضحك طويلًا على ما ضيعه من عمر في الخوف من أحلام نالت من راحته واستقراره، مؤكدًا أنه الآن لا يصدق نفسه بعد حرب الأعصاب الطويلة، والكوابيس التي عاشها أن ينتهي به الحال بالموت

على فراشه وبين أولاده وأحفاده بنفس راضية مطمئنة، ولعل الابتسامة المرسومة على وجهه الآن هي سخرية من الأسقف التي لم تتشقق والجدران التي لم تهتز والتي بقيت صامدة ومتماسكة برغم وهم سقوطها المدوي الذي كان يروعه كل مساء في الحلم، كل هذا لم يحدث في الواقع، لقد هول الأمر على نفسه بإطالة التفكير في نهاية درامية محتومة لحياته، ولكن جاءت طريقة موته ونهايته الطبيعية على فراشه وبين أحبته لتمثل صفعة مدوية للحلم، وإخفاقًا وفشلًا لكل همزات ووساوس الشياطين التي زارته في صحوه وفي منامه، حيث ودع الحياة مستلقيًا على وسادته وهو ممسك بمسبحته وجسده متجه نحو القبلة ووجهه مفعم بالفرح.

حاول الأبناء في أول الأمر تحريكه وإفاقته ظنًا منهم بأنه ربما واقع تحت تأثير غيبوبة، ولكنه قد فارق الحياة بالفعل، مات كما تمنى لنفسه أن يموت وهو مستلقٍ على فراشه وفي اتجاه القبلة كما أخبر شقيقته من قبل، وها هو يغادر الدنيا بهذه الميتة الكريمة التي طلبها لنفسه من الله -عز وجل- ونالها، والآن الجميع يسخر من أحلام طه التي نغصت حياة الجميع، الأبناء والأحفاد الذين فجعهم موت الجد، ولكنهم شكروا الله على هذه النهاية الجميلة، وأنه حفظ حياتهم ولم يكتب على طه الموت تحت أنقاض منزله، وها هو قد أسلم روحه لله دون أن يتعفر وجهه بحبة رمل واحدة، حزنت الزوجة والأبناء على رحيله، وإن أذهلتهم موتته الطبيعية بعد هذه الرحلة الطويلة مع الأحلام المرعبة؛ لذلك بكوه جميعًا شاكرين

الله -تعالى- على حسن الخاتمة التي نالها، حيث مات ممسكًا بسبحته بعد أداء صلاة العشاء، حضر المغسل إلى المنزل على وجه السرعة، ووقفت الزوجة على غسل زوجها وهي تدعو له بالرحمة والمغفرة: نسألك اللّٰهُمَّ أن تطهره من ذنوبه كما يطهر الثوب الأبيض من الدنس، وأن تغسله من ذنوبه بالماء والثلج والبرد، اللّٰهُمَّ ارفع درجته في المهديين، واخلفه في تركته في الغابرين، اللّٰهُمَّ إنا نحتسبه عندك يا رب العالمين فلا تحرمنا أجره ولا تفتننا بعده، اللّٰهُمَّ صعد روحه في السماء ووسع عن جسده الأرض، اللّٰهُمَّ نور له في قبره وافسح له في الجنة واخلفه في أهله، اللّٰهُمَّ لا تضلنا بعده ولا تحرمنا أجره واغفر لنا وله.

كانت تردد هذه الأدعية وهي متماسكة لا تريد أن تنهار في هذا الموقف الصعب، في الوقت الذي انتقل فيه الأبناء على عجل؛ لإنهاء إجراءات الوفاة واستخراج تصريح الدفن وفتح المقبرة، بينما زوجات الأبناء والأحفاد فقد سيطر الحزن على ملامحهن جميعًا، وبكى الأطفال بحرقة ومرارة فراق الجد الحنون الذي كان يضاحكهم ويلاطفهم حتى الرمق الأخير ويحضر لهم المخبوزات والمأكولات ويحفر أسمائهم وأعياد ميلادهم على مخبوزاته.

كما ظهرت الزوجة إلى جوار الجثمان بعد انتهاء الغسل وهي تبكي وتنوح تقرأ القرآن على روحه الطاهرة بقلب مؤمن خاشع، لم تكن تتخيل أن يكون الفراق سريعًا وأن يختطفه الموت من بينهم دون سابق إنذار، وقد التف حولها جيرانها في المنزل والمنزل المتاخم لبيتها ونسوة من الأقارب

لمواساتهم والوقوف مع الأسرة في هذا المصاب الجلل في فقيد الأسرة صاحب السيرة الطيبة والسمعة الحسنة الحاج طه الذي يعرفه كل أهل الحي ويحفظون له الود ويكنون له كل الحب والتقدير.

في هذه الأثناء وبينما الزوجة تجلس إلى جوار جثمان زوجها تقرأ القرآن والبيت ممتلئ بالمعزين المجتمعين حولها، شعر الجميع بحركات قوية غير عادية في المنزل، لم يكترث أحد في بادئ الأمر، فتكررت الحركات والأصوات التي تشبه حدوث زلزال فصرخ الأطفال في وجوه الحضور بأن يهموا بالخروج؛ لأن البيت ينهار، هرع عدد كبير من الحضور إلى خارج البيت، حيث بدأت تتساقط على نحو مخيف قطع حجارة من جدار إحدى البلكونات المرتفعة ومن أسقف الشرفات التي تطل على الشارع، وبدا واضحًا أن المنزل ينهار تدريجيًا بعد أن سقطت أجزاء كبيرة منه وأنه آخذ في السقوط تمامًا، مما دفع باقي السكان والضيوف إلى ترك المكان والنجاة بأجسادهم من الموت المحقق، في الوقت الذي كانت الحاجة كريمة حريصة على أن تظل بجوار جثمان زوجها رغم خطورة الوضع ورغم الخطر المحدق بها، وقد نصحها الضيوف والجيران بسرعة المغادرة؛ حفاظًا على حياتها، ولكنها كانت غير مبالية بالموت وتتلكأ في الخروج؛ خوفًا على الجثمان من أن يطويه التراب ويدفن تحت الركام، فهي لم تتخيل بعد أن زوجها الذي تحدى كابوس الموت تحت الأنقاض في أواخر أيامه وتحرر تمامًا من هذه الأفكار وهو حي يرزق يمكن أن يتحول مصيره الآن إلى الانزواء تحت

أنقاض منزله، وظلت تدعو الله دعاء قد يبدو غريبًا على أذن من يسمعه أن ينج جثمان زوجها من تحت الأنقاض، غير أن حالة المنزل كانت تتدهور بسرعة مما دفع الحضور إلى جذبها بقوة في اتجاه الدرج للنزول وترك الجثمان في مكانه، وفي أثناء جذبها للخارج تعثرت إحدى قدميها بالدرج الذي تناثر عليه بعض الركام المتساقط مما أوقف خطاها، وهنا انقض عليها أحد السكان وأمسك بها وجذبها بأعجوبة إلى خارج المنزل، وهكذا غادر الجميع المنزل المتهاوي ووقفوا على مقربة منه يشاهدون التطورات الحادثة، تاركين وراءهم جثمان الحاج طه على فراشه في هذا البيت المهدم حيث لم يتمكنوا من انتشاله وإخراجه، وبينما الأنظار تترقب وتتابع الشروخ التي بدأت تتسع في جدران البيت، لم تمر (أربعون) دقيقة على مغادرتهم المنزل إلا وتصدع وانهار بأكمله كما لو تم نسفه عن بعد بأجهزة تفجير، وتحول المنزل في غمضة عين إلى رماد واختفى أثر جثمان طه الموجود وحده في البيت، هذا الرجل الذي مات على فراشه بأريحية كاملة على غير ما توقع لنفسه وعلى غير توقعات أسرته استنادًا إلى الأحلام التي كانت تخبره بغير ذلك، إلا أنه مات كما تمنى، ولكن ما أن ابتسم له ملك الموت وقبض روحه وهو على فراشه بعد أن أدى ما عليه من فروض وعبادات حتى سقط في فخ الحلم وطواه الحطام والركام بعد أن صعدت روحه إلى بارئها.

انتقل خبر سقوط البيت إلى وسائل الإعلام فكانت تتناقله القنوات المختلفة والمراسلين من المحطات المحلية والدولية، وعلى الفور حضرت أجهزة الدفاع المدني والشرطة والإسعاف بأعداد كبيرة إلى موقع البيت المنهار الذي أصبح أشبه ببيوت (غزة) بعد حرب الإبادة التي شنها الصهاينة على القطاع في (2024)، واستفسرت وسائل الإعلام من السكان عن عدد الضحايا في البيت المنكوب، وقد جاءت الإجابات كلها متضاربة، فالبعض أفاد بأن هناك جثة واحدة في المنزل لصاحب المخبز، والبعض قال إن السكان شعروا بهزة عنيفة في البيت ولذلك هرعوا جميعًا وأخلوه على وجه السرعة قبل وقت قصير من سقوطه، ولذلك لم يسفر انهيار البيت عن سقوط ضحايا، وهكذا جاءت بيانات وإفادات السكان متناقضة ومتضاربة حيث أكد البعض على لسان شهود العيان بأن هناك جثمانًا واحدًا تحت أنقاض المنزل، والبعض الآخر شكك في هذه الرواية ونفى أن يكون الجثمان الموجود تحت أنقاض البيت هو ضحية لسقوط المنزل، والبعض الآخر عبر عن دهشته واستنكاره من الأنباء المتواترة في المنطقة والتي تفيد بأن الجثمان الموجود تحت الأنقاض ليس ضحية انهيار العقار، وأنه كان ميتًا قبل سقوطه مستبعدًا هذه الفرضية التي تبدو أقرب إلى الخيال، وهناك من خمن أن يكون الضحية قد توقف قلبه ومات من الرعب والصدمة وهو يرى بيته ينهار ويتهاوى أمام عينه، وأنه ربما لم يتحمل صعوبة المشهد

ولم يتمكن من الفرار ومات قضاء وقدرًا، وكان الشارع يضج بالكلام الكثير والتأويلات المختلفة بين من يخمن ومن يعلم ببواطن الأمور.

في هذه الأثناء عاد أبناء طه الثلاثة عماد وعمر وعلاء بعد أن ذهبوا لإنهاء إجراءات دفن والدهم واستخراج تصريح الدفن ليجدوا منزلهم قد أصبح أثر بعد عين وتحول إلى أنقاض وكومة من التراب، وأحيط المكان بكردون أمني، وعلموا من الأهالي أن جثمان والدهم موجود تحت الأنقاض وأن الأهالي لم يتمكنوا من إخراجه قبل سقوط المنزل، وقد أزاح الأبناء الثلاثة الحواجز الأمنية وبدأوا ينقبون عن مكان جثمان الوالد بين الأنقاض، وهنا حاول رجال الصحافة الذين يتابعون المشهد حل اللغز والوقوف على حقيقة ما جرى من الأبناء الثلاثة، وما إذا كان أبوهما قد لفظ أنفاسه تحت الركام، أم أنه كان ميتًا قبل سقوط البيت؟ وقد حسم الأبناء الجدل الدائر في المكان ونفوا تمامًا وجود ضحايا جراء سقوط البيت، وأفادوا بأن والدهم كان ميتًا قبل ذلك، وأنهم ذهبوا على عجل لإنهاء إجراءات وترتيبات الدفن، وطالبوا أجهزة الأمن وفرق الحماية المدنية بتكثيف نشاطها لإخراج جثمان والدهم المدفون تحت التراب ليعاد دفنه.

كان المشهد يبدو مفرطًا في غرابته بالنسبة للجميع، بمن فيهم رجال الشرطة والمسعفين، أحداثًا لم يتخيلها أو يتوقعها أحد، ولم يسبق أن مرت عليهم، كيف حدث كل ذلك؟ هذا الرجل الصالح الذي عاش سجينًا لكابوس طويل من أنه سيموت تحت أنقاض منزله، وكان يرتعش فرقًا وفزعًا من هذا المصير وهذه النهاية، وما إن خيب الله ظنون أحلامه وقبض روحه بصورة طبيعية وهو على فراشه، بالمخالفة لحلمه، أن يتركه أبى المنزل يذهب إلى قبره في سلام، وتربص به وانقض عليه، واستبق مراسم الدفن وأنهار عليه. هل كان حلمًا سخيفًا أم رؤية من لدن عليم قدير؟

مشهد أذهل الحضور وعصف بالعقول، هذا الرجل الذي انهار عليه بيته وغاص جسده تحت ركامه وأنقاضه، لم يسجل بوصفه ضحية لهذا المنزل الذي آل للسقوط، وأبناء يتوسلون لانتشاله بأي ثمن من تحت التراب كي يتمكنوا من إعادة دفنه من جديد، وأشخاص واقفون يبتهلون إلى الله بالدعاء أن يخرج الجثمان سليمًا من تحت الأنقاض وألا يمس بسوء.

بدأت فرق الإنقاذ بحثًا عن أحياء أو ناجين تحت أنقاض المنزل بعد تضارب أقوال أهالي الحي، ولكن الأبناء الذين اطمأنوا على سلامة باقي أفراد العائلة أكدوا لفرق الدفاع المدني أن لا وفيات أو ضحايا تحت الأنقاض، وأنه لا يوجد سوى جثمان والدهم الذي كان متوفى في المنزل قبل سقوطه، باشرت

فرق الحماية المدنية عملها لإزالة الأنقاض للوصول إلى مكان الجثمان تمهيدًا لإخراجه، وبعد رفع الأنقاض الذي استغرق خمس ساعات متواصلة، تمكنوا من الوصول إلى مكان الجثمان، وقد بهت الجميع حينما وصلوا إلى مكان الجثمان، حيث وجدوه كما تركوه، لم يصب جسده بأذى، مسجى على سريره وملفوف بكفنه، لم ينهار عليه سقف الغرفة مع انهيار كامل البيت، ولم يتأثر جسده أو حتى ابتسامة وجهه الساخرة بهذا الانهيار، وكأن الأمر لا يعنيه، وشاهد الأهالي والأبناء الموت الذي توقعه طه لنفسه، والنهاية التي لم تخطر على عقل أو قلب بشر.

****

محتويات الرواية

إهداء..... 5
شخصيات الرواية 6
الفصل الأول..... 7
الفصل الثاني 25
الفصل الثالث 38
الفصل الرابع 55
الفصل الخامس 71
الفصل السادس 89
محتويات الرواية 105

للتواصل مع الدار

التعاقدات

المعارض

الصفحة الرسمية

مسابقات

طلب إصدارات

الإعدادالتوزيع